الفصل السادس

شعراء السياسة والمديح والهجاء

١

شعراء الدعوة العباسية

رأينا فى الجزء الثانى من هذه السلسلة كيف كانت أحزاب الشيعة والخوارج والزبيريين والأمويين تصطرع ويجاهد بعضها بعضًا، وكيف استقرت على أصول ثابتة فى نظرية الخلافة ، فحزب الشيعة كان يرى أن تكون الخلافة فى أبناء على من بنى هاشم، لأنهم أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم وجمهورهم من حَفَدَته وقد أوصى لأبيهم — فيما يذكرون — بالخلافة ، وكان حزب الخوارج يرى أن تُرَدَّ الخلافة إلى الأمة لتولِّى عليها الخليفة التقى الصالح من أعلامها ، وكان حزب الزبيريين يرى أن تُرَدَّ الخلافة إلى أبناء الصحابة الأولين من المهاجرين وأن تعود إلى الحجاز ، حتى يسندها الحجازيون من أهل مكة والمدينة لا عرب القبائل اليمنية الشامية التى تؤازر الأمويين . بينما كان الأمويون يدعون لأنفسهم بأنهم الأكفاء لتلك الخلافة، ووصلوها بنظام الحكم الأجنبى المتوارث عند القياصرة والأكاسرة . ومضت هذه الأحزاب الأربعة تختصم ويجاهد بعضها بعضًا ، وكان أقصرها عمراً حزب الزبيريين فإنه لم يكد يتجاوز بضع سنوات لا تزيد على ثمان ، أما حزب الشيعة فقد ظفر بحظ من الحكم فى الكوفة لعهد المختار الثقفى الذى كان يدعو لمحمد بن الحنفية من أبناء على والذى أسس نظرية الكيسانية إحدى نظريات المذهب الشيعى ، على أن هذه الحركة سرعان ما خمدت ، غير أن التشيع ظل ملتهباً سرًّا، وتكوَّن مذهب الزيدية ، وقُضِىَ على صاحبه ، ولكن جمرات اللهب ظلت متقدة . وامتشق الخوارج الحسام فى غير ميدان ونازلوا الأمويين ودوَّخوهم ، ولكنهم استطاعوا أن يقضوا عليهم أو كادوا . ووراء كل هذه الأحزاب كان هناك شعراء كثيرون ينافحون عن سياسة أحزابهم ويظاهرونها على أعدائها ويناضلون نضالا عنيفًا ،

مما هيأ لازدهار الشعر السياسى .

وإذا تحولنا إلى العصر العباسى وجدنا هذا الشعر يأخذ فى الضعف ، لسبب مهم هو ضعف الأحزاب التى يعبر عنها ، أما حزب الزبيريين فكان قد سقط نهائيًا منذ سنة ٧٢ للهجرة ، ولم تقم له بعد ذلك قائمة ، وأما حزب الخوارج فإن معاركه مع الأمويين كانت قد طحنته طحنًا ولم تُبْقِ منه إلا بقايا ضعيفة ،كانت كلما تجمعت وأوقدت ثورة قضى عليها قائد عباسى قضاء مبرمًا ، وبذلك سقط هذا الحزب هو الآخر لا من حيث جهاد الدولة وحربها فحسب ، بل أيضًا من حيث الشعر والشعراء . أما حزب الشيعة فقد ظل حيًّا فى كثير من النفوس ، وظلت ثوراتهم تتوالى من حين إلى حين وظل كثير من أئمتهم وأعلامهم يُقْتَلون ويسجنون إذ كانوا يزعمون أنهم أولياء الخلافة الأقربون وأصحابها الشرعيون ،وأن العباسيين اغتصبوها منهم اغتصابًا . وكان العباسيون كما أسلفنا فى غير هذا الموضع قد حولوا إلى أسرتهم دعوة الكيسانية وأصبحوا أوصياءها ، ومضوا ينظمون الدعوة ضد بنى أمية ، حتى قوَّضوا حكمهم ، وأصبحوا ولاة الأمر وأصحاب السلطان ، وأخذوا يرصدون كل حركة للعلويين ، لا تأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة . حتى إذا كان المأمون ورأى أن يوصى بالعهد من بعده لعلوى هو على الرضا بن موسى الكاظم ثار عليه بيته ، واضطُرَّ إلى الانصراف عن تلك الفكرة كما مر بنا .

وعلى هذا النحو ظل الشيعة فى العصر العباسى الأول يطالبون بأن ينزل العباسيون عن الحكم ويردوا الأمر إلى نصابه ، وتبعهم فى تقرير نظريتهم كثير من الشعراء ، غير أنهم كانوا يخافون بطش العباسيين ، فكانوا ينْظمون ما ينظمون سِرًّا وقلما أعلنوه ، بل لقد مضى فريق منهم يمدح الخلفاء تقيَّةً ويبالغ فى مديحه ، حتى ليصبح كأنه من دعاتهم . وكثر حينئذ من يدعون لهم كثرة مفرطة ، فقد كانت الدنيا بيدهم وكنوز الدولة فى حجورهم فسال لها لعاب الشعراء ومضوا يدافعون عن حق العباسيين فى الخلافة ويردّون على العلويين منكرين حقهم فيها ، مستلهمين رسالة المنصور إلى محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية والتى عرضنا لها فى الفصل الأول ، وما ذكره فيها من أن أبناء البنت لا يحوزون الميراث ، إنما يحوزه العم وأبناؤه كما قرر الإسلام . ومن الغريب أنه لم يرتفع فى هذه الأثناء صوت ثالث يقرِّر أن

الخلافة فى منشئها كانت تقوم على استشارة الأمة فى تولية الصالح من زعمائها ، فهى ليست لُقْمة تستأثر بها أسرة خاصة ، بل هى نظام يقوم على الشورى ، هدفه الأساسى مصلحة الجماعة ، وهى شركة بين أفرادها جميعًا يتولاها أكفؤهم سواء أكان من بيت هاشمى أم لم يكن ، وسواء أكان قرشيًّا أم كان غير قرشى . وكان المفروض أن يجهر بذلك الفقهاء والمتكلمون ، وكأنما لم يتبينوا حينئذ الطريق الصحيح لحكم الأمة ومصلحتها العامة ، فمضوا يصانعون العباسيين مُذْعنين لهم خاضعين .

وإذا مضينا نتعقب من كانوا يمدحون الخلفاء العباسيين لهذا العصر وجدناهم أكثر من أن يُحْصوا ويستقصوا ، وإنما يهمنا منهم من كانوا يقفون مدافعين عن نظريتهم فى الخلافة مناضلين عنهم خصومهم من الشيعة العلويين ، ولا بد أن نلاحظ منذ أول الأمر أن أصحاب مذهب الكيسانية كانوا يوالون العباسيين ، ولذلك لا نعجب إذا رأينا السيد الحميرى يكثر من مديحه لهم ، وقد مدح طويلا أبا العباس السفاح والمنصور والمهدى[1] . ويلمع اسم أبى دلامة فى بلاطهم جميعًا ، وكانت فيه دعابة جعلتهم يتخذونه لهم نديمًا ، ومن أوائل من استظهروا فى أشعارهم النضال عن سلطان العباسيين أبو نُخَيْلة ، وهو من مخضرمى الدولتين : الأموية العباسية فى مديح السفاح إذ يقول[2] :

حتى إذا ما الأَوصياءُ عسكروا وقام من تِبْرِ النبىِّ الجَوْهَرُ
أقبل بالناس الهوى المشهَّرُ وصاحَ فى الليل نهارٌ أنور

وواضح أنه يجعل العباسيين أوصياء على الخلافة ، فليس العلويون أصحابها إنما أصحابها العباسيون الذين استُخْلصوا لها كما يستخلص الجوهر . وقد مدح المنصورَ كثيرون فى مقدمتهم بشار وأبو دلامة نديمه والسيد الحميرى ، ونرى أبا نخيلة يمدحه طويلا ، وقد رُوِىَ له فيه قطعة من أرجوزة يغريه فيها بخلع ولى عهده عيسى بن موسى وعَقْد العهد لابنه محمد المهدى ، وفيها يقول[3] :

---

(١) انظر ترجمته فى الجزء السابع من الأغانى طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٤٩/١٨ وما بعدها .

(٣) أغانى ١٥٠/١٨ .

ليس ولىُّ عَهْدِنا بالأَسْعَدِ عيسى فَزَحْلِفْها إلى محمَّدِ[1]
من عند عيسى معهدًا عن معهدِ حتّى تؤدَّى من يدٍ إلى يَدِ
فنادِ للبَيْعةِ جمعًا نَحْشُدِ فى يومنا الحاضر هذا أو غَدِ

ويُعَدُّ المهدى أول خليفة فتح أبوابه على مصاريعها للشعراء ، فقد مضى يجزل لهم فى العطاء ومضوا يجزلون له فى الثناء ، وفيه يقول ابن الخياط ، إن صح أنها له [2] :

لمستُ بكفى كفَّه أبتغى الغِنَى ولم أدر أن الجود من كفِّه يُعْدِى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدتُ وأعدانى فأتلفت ما عندى

وممن أكثروا من مديحه مروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبو دلامة وبشار وأبو العتاهية والسيد الحميرى ونُصَيْب الأصغر والعُمانى الراجز ، وقد روى له ابن المعتز أرجوزة يستحثه فيها على توليته العهد من بعده ابنيه الرشيد والهادى[3] ، ومن مُدَّاحه الحسين بن مُطَيْر مولى بنى أسد ، وكان يغلو فى مديحه غلوا شديداً حتّى ليرفعه على البشر درجات من مثل قوله[4] :

لو يعبدُ الناسُ يا مهدىُّ أفْضَلَهم ما كان فى الناس إلا أنت معبودُ
أضحتْ يمينكُ من جودٍ مصَوَّرَةً لا بل يمينك منها صُوِّرَ الجودُ
لو أن من نوره مِثْقالَ خَرْدَلةٍ فى السود طُرًّا إذنْ لابيضَّت السودُ

ونرى كثيرين من الشعراء لعهده يدافعون عن حقه وحق العباسيين فى الخلافة منكرين على العلويين حقهم فيها ، فهم ورثتها الشرعيون وحصونها الحقيقيون ، وفى ذلك يقول ابن المولى[5] :

وإن أميرَ المؤمنين ورَهْطَهُ لأَهلُ المعالى من لُؤَىٍّ بن غالِبِ
أولئك أوتادُ البلاد ووارِثو النَّ بِىِّ بأمر الحقِّ غير التكاذبِ

---

(١) زحلف : دحرج ودفع .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/٩٤ .
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبعة دار المعارف) ص ١١١ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٦/٢٣١ .
(٥) أغانى ٣/٢٩٣ .

ومضى فى القصيدة يذكر بلاء العباسيين فى تقويض الحكم الأموى والأخذ للعلويين بثأرهم الذى كان مهدرًا وأعلن بلسان الخليفة أنه رحيم بهم شفيق عليهم لما يربطه بهم من وشائج القربى، وأن من رجع منهم عن غيه وتاب قبل منه توبته وأسدل عليه نعمه .

وكان الهادى منذ ولاية أبيه يقعد للشعراء ويمدحونه[١]، وفى مقدمتهم مروان ابن أبى حفصة وسلم الخاسر ومطيع بن إياس وأبو الخطاب البَهْدَلِيُّ . وخلفه سريعًا هرون الرشيد، وظل فى الخلافة نحو اثنين وعشرين عامًا، ويقول الرواة إنه لم يجتمع بباب أحد ما اجتمع ببابه من الشعراء[٢]، ومن مدّاحه أبو الشّيص والعُمانى وابن مناذر وعمر بن سلمة ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع السُّلَمى والسيد الحميرى ومنصور النَّمرى وأبو الغول الطُّهَوى ، وله يذكر عقده العهد لابنيه الأمين والمأمون[٣]:

بنيتَ لعبد الله بعد محمَّدٍ ذُرَا قُبَّة الإسلام فاخضرَّ عودها
هما طُنُباها ـ بارك الله فيهما ـ وأنت ـ أميرَ المؤمنين ـ عَمودها

ومن مُدّاحه أيضًا ربيعة الرَّقّىُّ ونُصَيْب الأصغر، ونراه يردّد له أن خلافته ميراث ورثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٤] ، كما نرى الشعراء يحيطونه بهالة من التقديس حتى ليقول النَّمرى[٥] :

إن المكارم والمعروف أوديةٌ أحلَّك الله منها حيث تتسعُ
إذا رفعتَ امرءًا فالله يَرْفَعُهُ ومن وضعتَ من الأقوام متَّضع

ويقال إنه كان لا يرى بأسًا فى أن يمدح بما تمدح به الأنبياء[٦] ! . وكانت له انتصارات مدوية على الخوارج والروم ، فتغنى بها الشعراء طويلا .

وولى بعده الأمين ، وكان فيه لهو ومجون فلزمه أبو نواس ، ومن مدّاحه أبو الشيص وعبد الله بن أيوب التيمى ، وكان يكثر فى مديحه له من التنديد بأخيه

---

(١) أغانى ١٣/٣٢٦ .
(٢) انظر الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ٤/٣٨٢ .
(٣) ابن المعتز ص ١٤٩ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٢٥ وما بعدها .
(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٤٧
(٦) أغانى ١٣/١٤٤ .

المأمون حين خلع طاعته على شاكلة قوله[١]:

خلافةُ الله قد توارثها آباؤه فى سوالف الكتُبِ
فهْى له دونكم مورَّثَةٌ عن خاتم الأنبياء فى الحِقَبِ

وقوله[٢]:

مَنْ رأى الناسُ له الفَضْـ ـلَ عليهم حَسَدُوهُ
مثلَ ما قد حَسَدَ القا ئمَ بالمُلْك أخــوه

وكان المأمون ممدَّحًا مثل أبيه الرشيد، ومن مُدَّاحه — وهو لا يزال ولىّ عهد — منصور النّمرِى وأشجع السُّلَمِىّ وأبو محمد اليزيدى مؤدبه، ومن تغنَّوا بمديحه فى خلافته أبو تمام وإبراهيم بن المهدى عمه ودعبل وعبد الله بن أيوب التّيْمى ومحمد بن عبد الملك الزيات وابن البواب ومحمد بن وهيب، ومدائحهم فيه مبثوثة فى أخبارهم بكتاب الأغانى. ومرَّ بنا فى الفصل السالف تنويه أبى تمام بالمعتصم وانتصاراته المدوية، ومن مدَّاحه ابن الزيات ومحمد بن وهيب والحسين بن الضحاك ومخلد بن بكار الموصلى وخالد الكاتب. ومن نوهوا بالواثق أبو تمام وله فيه قصائد بديعة. ولعل من الخير أن نقف قليلا عند نفر من مداح هؤلاء الخلفاء، هم أبو دلامة ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر.

أبو دلامة[٣]

هو زَنْد بن الجَوْن، كوفى أسود، من موالى بنى أسد، كان أبوه عبداً فأعتقه رجل منهم، وهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية، ولم يكن له فى أيام الدولة الأولى شأن يذكر، غير أن الدولة العباسية لم تكد تظله حتى أخذ نجمه

(١) أغانى (ساسى) ١٨/١٢٠.
(٢) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ٢/١٦١.
(٣) انظر فى ترجمة أبى دلامة وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٥٤ وابن قتيبة فى الشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ص ٥١٧ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٠/٢٣٥ وابن خلكان وتاريخ بغداد ٨/٤٨٨ وشذرات الذهب ١/٢٤٩ ومرآة الجنان لليافعى ١/٣٤١ والمؤتلف ١٣١ ومعجم الأدباء ١١/١٦٥ وذيل زهر الآداب للحصرى (طبعة القاهرة) ص ٨١ وما بعدها. وقد طبع ديوانه بالجزائر.

يتألّق إذ قرّبه منه السفّاح ، وكانت فيه دعابة جعلته خفيف الظل على قلبه فاتخذه هو ومن وليه من الخلفاء نديمًا لهم يُطْرفهم بنوادره . و يقول أبو الفرج : « كان فاسد الدين ردىء المذهب مرتكبًا للمحارم مضيعاً للفروض مجاهراً بذلك ، وكان يُعْلَمُ هذا منه و يُعْرَفُ به فيُتَجافى عنه للطف محله » . ولعل أبا الفرج بنى هذا الحكم على ما ساقه من أخباره إذ ذكر أن المنصور بلغه أنه معتكف على الخمر ولا يحضر صلاة ولا مسجداً ، فأمره بلزوم الجماعة فى مسجد قصره ، وطال عليه ذلك فاستعفاه بقصيدة يقول له فيها :

ألم تعلما أن الخليفة لزّنى بمسجده والقصْرِ مالى وللقَصْرِ !
وما ضرّه والله يغفر ذَنْبَهُ لو أنّ ذنوب العالمين على ظهرى

وضحك المنصور حين قرأ القصيدة وأعفاه من الحضور معه . وروى أبو الفرج فى موضع ثان أن المنصور أمره بالقيام معه فى ليالى شهر رمضان ، وأنه شَقّ عليه ذلك فكتب إلى رَيْطة زوجة ابنه المهدى شعراً يُضْحكها به ويستشفعها عند عمها المنصور . وفى خبر ثالث أن المنصور سجنه لسكره . وقد يكون فيه لهو وميل للمجون ، أما أن يكون فاسد الدين مخلا بالفروض للخبرين الأولين وما يشبههما فإن ذلك يكون مبالغة فى الحكم إذ كان يذهب بذلك إلى الدعابة شأنه فى دعاباته الأخرى التى رواها أبو الفرج وغيره .

ويُرْوَى أنه انقطع فى بعض أيامه إلى رَوْح بن حاتم بن قبيصة المهلبى ، أما فى عامة أيامه فكان ملازماً للخلفاء إذ كانوا يتخذونه نديمًا لهم يضحكهم بنوادره ، ويُقال إنه لم يصل إلى أحد من الشعراء ما وصل إليه من المنصور خاصة ، وكان أول ما جعله يُسْنى له الجوائز داليّته التى مدحه بها حين قتل أبا مسلم الخراسانى وفيها يقول :

أبا مجرمٍ ما غيَّر الله نعمةً على عبده حتى يغيِّرها العَبْدُ
أفى دولة المهدىِّ حاولتَ غدرةً ألا إن أهل الغَدْر آباؤك الكُرْدُ

وواضح أنه يلقب المنصور فى البيت الأخير بالمهدى ، مستعيراً ذلك من الشيعة وما يردِّدونه فى آثارهم عن صفاته وأنه المنقذ الذى يخلِّص الناس من بلاياهم

ويملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلماً ويهدى الناس إلى الطريق السَّوِىِّ المستقيم، وتذهب بعض الروايات السنية إلى أن الاسم الحقيقى للمهدى إنما هو محمد ، ولعل المنصور لاحظ ذلك حين لقب ابنه محمداً بالمهدى ، وكأنه كان يريد أن يوحى للناس بأنه المهدى المنتظر . على أن من الشعراء من مضى مثل أبى دلامة يلقبه هو نفسه بهذا اللقب ، وكان ما يزال يرفع من شأنه هو وأسرته درجات فوق العالمين على شاكلة قوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرمٍ قومٌ لِقيلَ اقْعُدُوا يا آل عَبَّاسِ
ثم ارْتَقُوا فى شعاع الشمس وارتفعوا إلى السماء فأنتم سادةُ الناسِ

وكان يجيد الرثاء كما يجيد المديح وقد بكى السفاح طويلا . ولما توفى المنصور رثاه بقصيدة جيدة جمع فيها بين الحزن عليه والفرحة بتولية المهدى ، والطريف أنه جمع المعنيين فى كل بيت من أبياتها على نحو ما نرى فى قوله :

عينان : واحدة تُرَى مسرورةً بإمامها جَذْلَى وأخرى تَذْرِفُ
تبكى وتضحك مرة ويسوءُها ما أبصرتْ ويسرُّها ما تعرفُ

وله نوادر كثيرة ترويها كتب الأدب ، منها ما يتصل بالخلفاء ونسائهم ، ومنها ما يتصل بزوجته وبأولاده ، وكان يعرف كيف يحيل بعض نوادره شعراً ، إذ كان الشعر يتدفق على لسانه تدفقاً ، ويُرْوَى أنه بُشِّر ببنت له ، فقال تَوًّا مداعباً ومتفكهاً :

فما ولدتْك مريم أمُّ عيسى ولم يَكْفُلْكِ لقمانُ الحكيمُ
ولكن قد تضمَّكِ أمُّ سوءٍ إلى لَبَّاتِها وأبٌ لئيم

وله بجانب ذلك أشعار فى وصف الشراب والرياض ، وانقطع بعد المنصور إلى المهدى فكان يصله بالجوائز السنية ويستطيب مجالسته ونوادره إلى أن توفى سنة ١٦١ للهجرة .

مروان[1] بن أبى حفصة

أصل جده من يهود خراسان ، وكان مولى لمروان بن الحكم وهبه له عثمان بن عفان ، ويقال إنه أبلى فى الدفاع عنه حين حوصر فى داره وقُتل ، فأعتقه مروان جزاء بلائه ، ولما ولى المدينة لمعاوية ولاّه على خراج اليمامة ، واقترن هناك بعربية أنجب منها ابنه يحيى ، وكان شاعراً متوسطاً ، ويقال إنه تزوج بنت زياد بن هوذة وأنجب منها فيمن أنجب ابنه سليمان وكان هو الآخر يقرض الشعر ، ورزق سليمان بابنه مروان سنة ١٠٥ للهجرة . وقد نشأ فى اليمامة حيث استقرت أسرته والشعر يجرى فى أعراقه فلم يلبث أن شدا به ، غير أن اسمه لم يلمع إلا فى العصر العباسى ، ونراه ينقطع لمعن بن زائدة الشيبانى ، وكان جواداً مقداماً وبطلا مغواراً ، ولاه المنصور اليمن ثم سجستان . ويقال إن مروان أخذ منه مالا كثيراً ، وخاصة حين مدحه بقصيدته اللامية ، وفيها يقول عنه وعن عشيرته :

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم ... أُسودٌ لها فى بَطْن خَفَّانَ أَشْبُلُ[2]

هُمُ يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهمُ بين السِّماكين مَنْزِلُ

بَهَا لِيلُ فى الإسلام سادوا ولم يكن ... كأولهم فى الجاهليةُ أولُ

همُ القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعُوا ... أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجْزلوا

وما يستطيع الفاعلون فعالَهم ... وإن أحسنوا فى النائبات وأجملوا

وله بجانب هذه القصيدة فيه قصائد كثيرة ملأ بها حِجْره من الأموال، ومن طريف مديحه فيه قوله يصور سيادته وشرفه وكرمه وشجاعته :

---

(١) انظر فى ترجمة مروان وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٤٢ وابن قتيبة ص ٧٣٩ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٠/٧١ والموشح للمرزبانى ص ٢٥١ والنجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ٢/١٠٦ وتاريخ بغداد ١٣/١٤٢ وشذرات الذهب ١/٣٠١ وابن خلكان ٢/١١٧ والوزراء والكتاب للجهشيارى ، انظر الفهرس ، وكذلك فهرس الأغانى ومرآة الجنان لليافعى ١/٣٨٩ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ٢/٢٨٦ .

(٢) خفان : مأسدة بالقرب من الكوفة . ومطر اسم جد معن ، وهو مطر بن شريك الشيبانى .

مَعنُ بن زائدة الذى زيدت بهِ شرفاً إلى شرفٍ بنو شيبانِ
إن عُدَّ أيَّامُ الفعَال فإنمـا يومـاه يوم نَدًى ويوم طِعانِ

وما زال يوالى مديحه له حتى توفى سنة ١٥٢ للهجرة ، فأبَّنه تأبينًا حارًّا ، ومن رائع تأبينه له لاميته ، وفيها يقول معبراً عن حزنه العميق وأساه :

أقمنا باليمامة بعد مَعْنٍ مُقاماً لا نُريد له زِيالا
وقلنا : أين نرحل بعد مَعْنٍ وقد ذهب النَّوال فلا نوالا

ويقول من أخرى :

قُلْ للمنيةِ لا تُبْقى على أحدٍ إذ مات مَعْنٌ فما مَيْتٌ بمفقودِ

ولما ولى المهدى بعد أبيه المنصور وَفَدَ عليه ، ولم يكد يلقى بين يديه أولى قصائده فيه حتى بهره بمديحه ، ولم يكن مديحًا عاديًّا بالكرم والشجاعة والخلال الكريمة التى يقدرها العرب دائماً ، بل كان أيضًا مديحاً سياسيًّا ، إذ عمد إلى الدفاع عن حقوق العباسيين فى الخلافة والرد على العلويين وما يدعونه من هذه الحقوق ، ولعل شاعراً لم يبلغ فى هذا الدفاع مبلغه ، إذ كان يعرف كيف ينقضُّ على العلويين بالحجة القاطعة على نحو ما نرى فى قوله :

هل تَطْمسون من السماء نجومَها بأَكُفِّكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالةً عن ربكم جبريلُ بلَّغها النبيَّ فقالهـا
شهدتْ من «الأنفال» آخرُ آيةٍ بتُراثهم فأردتمُ إبطالها

وهو يريد بآية الأنفال قوله تعالى : (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم) يشير بذلك إلى حق العباسيين فى وراثة الخلافة وأنهم مقدمون فى هذا الحق على أبناء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة الزهراء إذ العم مقدم على الأسباط فى الوراثة ، على نحو ما هو معروف فى الشريعة الإسلامية . وبلغ من

فرط إعجاب المهدى بالقصيدة أن سأل كم عدد أبياتها ، فقال مروان : مائة ، فأمر له بمائة ألف درهم ، وكانت أولَ مائة ألف درهم أخذها شاعر فى أيام بنى العباس . ومضى مروان يردد فى مديحه للمهدى هذا الدفاع السياسى عن حق العباسيين فى وراثة الخلافة ، وهو يغدق عليه عطاياه الجزيلة ، ومن إحكامه لهذا الدفاع أبياته التالية التى يخاطب بها المهدى :

يا بن الذى ورث النبىَّ محمَّدًا ... دون الأَقارب من ذوى الأَرحامِ
الوَحْىُ بين بنى البنات وبينكم ... قطَعَ الخِصام فلاتَ حينَ خِصام
ما للنساء مع الرجال فريضةٌ ... نزلتْ بذلك سورة الأنعام
أَنَّى يكونُ وليس ذاك بكائنٍ ... لبنى البنات وراثةُ الأَعمام

وما زال يفد على المهدى حتى توفِّى وخلفه ابنه الهادى فوفد عليه مع من وفدوا يهنئونه بالخلافة ويعزونه عن أبيه ودخل فأخذ بعِضادتى الباب ، ثم قال :

لقد أَصبحتْ تختالُ فى كل بلدةٍ ... بقبر أَمير المؤمنين المقابِرُ
ولو لم تسكَّن بابنه فى مكانه ... لما برحتْ تبكى عليه المنابرُ

ومضى يفد على هرون الرشيد ويجزل له فى الصلات السنية ، ووَفَدَ على البرامكة — شأنه فى ذلك شأن جميع شعراء الرشيد ، إذ كانوا يجمعون بين مديحه ومديحهم — وله فى يحيى بن خالد البرمكى من قصيدة :

إذا بلَّغَتْنا العِيسُ يحيى بن خالدٍ ... أَخذنا بحبل اليُسْر وانقطع العُسْرُ
فإن نشكر النُّعْمَى التى عمَّنا بها ... فحقٌّ علينا — ما بقينا — له الشكر

ومن رائع قوله فى الفضل بنه :

إذا أُمُّ طفلٍ رَاعَها جوعُ طفلها ... غَذَتْه بذكر الفضل فاستعصَم الطِّفْلُ
ليحيى بك الإسلام إنك عِزُّه ... وإنك من قومٍ صغيرهمُ كَهْلُ

وليس له وراء المدح والرثاء شعر مذكور . وقد اشتهر ببخله وشدة حرصه وكان يلم ببغداد ثم يعود سريعًا إلى اليمامة ، ولذلك لم يتضح عنده التأثر بالحضارة العباسية

وما تُرْجم من ثقافات أجنبية، على أنه كان يحكم صنعته إحكاماً بعيداً، ويُرْوَى عنه أنه كان يحوك القصيدة فى سنة ، أما فى الأشهر الأربعة الأولى فكان ينظمها ، وكان فى الأربعة الأشهر الثانية يصقلها وينقحها ، أما فى الأربعة الأشهر الأخيرة فكان يعرضها على الرواة والنقاد حتى إذا وثق من جودتها أنشدها ممدوحيه ، وما زال فى المحل المرموق من الشعر حتى توفى سنة ١٨٢ ويقال إنه مات مقتولا بيد شيعى انتقاماً منه للعلويين .

سلم[1] الخاسر

من موالى تَيْم عشيرة أبى بكر الصديق ، وُلد بالبصرة وبها نشأ، واختلف الرواة فى سبب تلقيبه بالخاسر ، فقيل إن أباه عمرو بن حماد خلَّف له مالا كثيراً أنفقه على الشعر وفى اللهو فلقِّب بذلك ، وقيل بل لأنه اشترى بمصحف ورثه من أبيه طُنْبورا، وقيل أيضًا إنه إنما لُقِّب بذلك لأنه باع مصحفًا واشترى بثمنه دفتر شعر . ويقول أبو الفرج : « هو راوية بشار بن بُرْد وتلميذه وعنه أخذ ومن بحره اغترف وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر » ورَوَى عنه أنه قال : « هل أنا إلا جزء من محاسن بشار ، وهل أنطق إلا بفضل منطقه . . إنى لأروى له تسعة آلاف بيت ما يعرف أحد غيرى منها شيئًا » ويقال إنه كان من أعرف الشعراء بأشعار الجاهلية. ونراه فى مطالع حياته يمدح معن بن زائدة وعمر بن العلاء والى طبرستان ويمدَوح أستاذه بشار ، وله يقول :

كم كربةٍ قد مسَّنى ضُرُّها ناديتُ فيها عمر بن العلاء

ورثى معنا حين توفى رثاء حارًّا ، وبنفس اللوعة رثى أبا جعفر المنصور ، وفيه يقول :

عجباً للذى نعى الناعيانِ كيف فاهتْ بموته الشفتانِ

---

(١) انظرفى سلم وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٩٩ والأغانى (طبعة الساسى) ٢١/٧٣ وتاريخ بغداد ٩/١٣٦ وابن خلكان ومعجم الأدباء ١١/٢٣٦ والوزراء والكتاب للجهشيارى انظر الفهرس .

ليتَ كَفًّا حَثَتْ عليه تُرَاباً لم تَعُدْ فى يمينها بِبَنانِ

وتُفْتَحُ له أبواب الخلافة منذ عصر المهدى ، إذ كان يعطيه هو ومروانَ بن أبى حفصة عطية واحدة . ويقول ابن المعتز إنه كان يذهب به فى مديحه إلى أنه المهدى الذى وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض ما نُسب إليه من آثار ، وله يقول فى بعض قصائده :

وإلى أمير المؤمنين محمدٍ خير الأنامِ
فضَلَ الملوكَ محمدٌ فَضْلَ الحلال على الحرامِ

ويقول :

ومهدىّ أُمَّتنا والذى حماها وأدرك أوتارهـا
له شيمةٌ عند بذل العطا ء لا يعرف الناسُ مقدارها

وكان يقف بجانبه فى كل مناسبة ، من ذلك أن نراه ينبرى حين اتخذ يعقوب ابن داود وزيراً له قائلا منوهاً به وبوزيره :

قُلْ للإمام الذى جاءتْ خلافتُه تُهْدَى إليه بحقٍّ غير مردودِ
نعْمَ المعينُ على التقوى أُعِنْتَ بهِ أخوك فى الله يعقوب بن داودِ

ولما ماتت ابنته « البانوكة » حزن عليها هو وأمها الخيزران حزنًا شديداً ، وإذا بشاعره يقف بين يديه معزياً بل نادبًا باكيا بمثل قوله :

أَوْدَى ببانوكةَ رَيْبُ الزمانْ مُؤْنِسةِ المهدىِّ والخيزرانْ
بانوكَ يا بنتَ إمام الهُدَى أصبحتِ من زينة أهل الجنانْ
بكتْ لكِ الأرضُ وسُكَّانُها فى كلِّ أفقٍ بين إنْسٍ وجانْ

ويقال إنه بلغ المهدى أنه مدح بعض العلويين فتوعده وهمَّ به ، ولكنه استطاع أن يسلّ منه سخيمته بقصيدة بالغ فيها فى تصوير اعتذاره بمثل قوله :

وأنت كالدهر مبثوثاً حَبائِلُهُ والدهر لا ملجأٌ منه ولا هَرَبُ

والحق أنه كان خالصًا للعباسيين ، وقد مضى يمدح الهادى بعد المهدى مُضْفيا عليه نفس صفات القدسية والجلال من مثل قوله :

وجدناك فى كتب الأوَّلي ن محيي النفوس وقتَّالها
لقد جعل الله فى راحتيك حياةَ النفوس وآجالهـا

وله يقول من أخرى :

لولا هُداكم وفضل أولكم لم تَدْرِ ما أصل دينها العربُ

ولم يكد الهادى يسمع منه هذا البيت حتى استخفه الطرب ، وأمر له بثلاثمائة ألف درهم . وولى بعده الرشيد فوالى فيه سلم مدائحه ، ووالى عليه هرون عطاياه الجزيلة ، ومن قوله فيه حين جعل ولاية العهد فى ابنه الأمين :

قد بايع الثقلان فى مَهْدى الهدى لمحمد بن زُبَيْدة ابنة جعفرِ

ويقال إن زبيدة وصلته من أجل هذه القصيدة بمائة ألف درهم . ولم يلبث الرشيد أن عقد العهد من بعد الأمين للمأمون فنوَّه به كما نوَّه بأخيه . وجذبه البرامكة إليهم ، فأشاد بهم طويلا ، ومن رائع قصائده فيهم لاميته التى مدح بها يحيي ابن خالد وفيه يقول :

بَلَوْتُ الناسَ من عُجْمٍ وعُرْبٍ فمـا أحدٌ يسير كما تسيرُ
فكلُّ الأمر من قولٍ وفعل إذا عَلِقَتْ يداك به صغير
وفى كفَّيك مَدْرَجَةُ المنايا ومن جَدْواهما الغيث المطيرُ

وأكثر من مديح الفضل بن يحيي ، حتى كاد ينقطع له ، ومن بارع مديحه فيه قوله مصوراً شجاعته وكرمه :

له يومان : يومُ نَدًى وبَأْسٍ كأَنّ الدهر بينهما أَسِيرُ

وقوله :

أقام الندى والجود فى كل منزلٍ أقام به الفضل بن يحيي بن خالدِ

وكان يمدح أيضا الفضل بن الربيع وزير الرشيد . ويظهر أن الفضل البرمكى أكثر من برّه ونواله عليه حتى حسده الشعراء وفى مقدمتهم صديقه أبو العتاهية ، مما جعل كلا منهما يلمز صاحبه بعض اللمز ، أما أبو العتاهية فوصفه بالحرص والشح فى بيته الذى أنشدناه فى الفصل السابق :

تعالى الله يا سَلْم بن عمرو أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرجالِ

وأما سلم فاتهمه بأنه كاذب منافق فى زهده وتقشفه ، وكان قد تحول إلى الزهد على نحو ما أسلفنا ، ومع ذلك كان لا يزال يمدح ويستجدى وفى ذلك يقول له سلم :

ما أقبحَ التَّزْهيدَ من واعظٍ يُزَهِّدُ الناسَ ولا يزهدُ
لو كان فى تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بَيْتُه المسجد

وفى أخباره ما يدل على أنه كان يهاجى والبة بن الحباب ، غير أنه لم يكن يحسن الهجاء . ويظهر أنه كان يلم بشىء من اللهو والمجون فى مطالع حياته ، غير أنه لم تتقدم به السِّنُّ حتى التزم جانب الوقار . وشعره يؤكد أن المديح لم يترك فيه بقية لفن آخر سواه . ولم يكن شحيحاً كما وصفه أبو العتاهية ، بل كان كريماً سمحاً إذ يقول ابن المعتز إنه كان ينفق ما يأخذه من الأموال على إخوانه وغيرهم من أهل الأدب . وفى أخباره ما يدل على أنه كان يتأنق تأنقاً شديداً فى ملبسه ومظهره وأنه كان يحيا حياة مترفة ناعمة . وأشعاره مليئة بالرشاقة والعذوبة والنعومة ، وله فى الهادى مدحة اشتهرت فى عصره وبعد عصره ، إذ بنى شطورها من تفعيلة واحدة على هذا النمط :

موسى المطَرْ عَدْلُ السِّيَرْ

وقد جعلها على قافية واحدة ، وهى تفيض بالخفة والرشاقة ؛ ومن حكمه البديعة :

لا تَسْأَلِ المرءَ عن خلائقهِ فى وَجْهِهِ شاهدٌ عن الخَبرِ

وما زالت حياته تجرى رُخاء حتى توفى سنة ١٨٦ للهجرة .

٢

شعراء الشيعة

كان استيلاء العباسيين على مقاليد الخلافة مفاجأة لكثير من العلويين وأنصارهم من فرق الشيعة ، وربما كانت الفرقة الوحيدة التى لم تجد فى ذلك غضاضة هى فرقة الكيسانية من أصحاب أبى هاشم بن محمد بن الحنفية، فإنه تنازل لهم ، كما أسلفنا ، عن الخلافة ، ولعل ذلك ما جعل شعراءها ، من أمثال السيد الحميرى ، يقفون فى صفوف العباسيين مادحين مثنين . أما شعراء الفرق الأخرى فقد عمتهم الفرحة حين انتصرت الثورة العباسية ، ظانين أن العباسيين سيشركون أبناء عمهم العلويين فى الحكم معهم ، حتى إذا انبلجت الحقيقة نفضوا أيديهم منهم ، وخاصة شعراء الزيدية . أما شعراء الإمامية فقد وجدوا أمامهم فسحة كى ينافقوا العباسيين ، وكى يظهروا غير ما يبطنون ، لمبدأ التقية المشهور الذى كان يأخذ به الشيعة الإمامية جميعًا من اثنى عشرية وإسماعيلية ، ومن ثَمَّ رأيناهم يمدحون خلفاء بنى العباس ، يستّرون بذلك حقائقهم ، على نحو ما هو معروف عن منصور النمرى . وخير من يمثل شعراء الزيدية فى أوائل هذا العصر سُدَيْف وهرون بن سعد العِجْلىّ . أما سديف فاشتهر بتحريضه السفّاح لأول خلافته على الثأر من بنى أمية بمثل قوله[1] :

أصبح الملك ثابت الآساسِ ... بالبَهاليل من بنى العباسِ
لا تُقيلنَّ عبدَ شمسٍ عِثارًا ... واقْطَعَنْ كل رَقْلَةٍ وغِراسِ[2]

ومضى يستثيره على الفتك بهم حتى استشاط موجدة وحنقاً ، فدعاهم إلى مأدبة كبيرة ، حتى إذا قدموا وتهيّؤا للطعام وقف سديف ينشده[3] :

لا يَغُرَّنْك ما ترى من رجالٍ ... إن تحت الضلوع داءً دَوِيًّا
فضَعِ السيف وارْفَع السَّوْط حتى ... لا ترى فوقَ ظهرها أمَوِيًّا

(١) ابن المعتز ص ٣٩ والأغانى (طبع دار الكتب) ٤/٣٤٥ .
(٢) الرقلة : النخلة الطويلة تفوت اليد .
(٣) ابن المعتز ص ٤٠ والأغانى ٤/٣٤٨ .

ووضع أبو العباس السفاح السيف فيهم حتى أتى عليهم ، ويقال : بل شُدخوا بالأعمدة . وصنع صنيعه بجموعهم فى الشام والحجاز والبصرة أعمامه : عبد الله وداود وسليمان . وتوفى السفاح وخلفه المنصور فاستقر فى نفوس زعماء العلويين أن الخلافة قد أفلتت من أيديهم وأن العباسيين لن يدعوا لهم منها شيئاً . وما تُوافى سنة ١٤٥ للهجرة حتى يثور بالمدينة محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية . وهى — كما أسلفنا فى الفصل الأول — أول ثورة للزيدية ، ونرى سديفاً يقف مع أخيه إبراهيم بن عبد الله حين ثار بالبصرة ، ناظماً كثيراً من الأشعار ضد المنصور ، مما يؤكد أنه كان يعتنق مذهب الزيدية ، ومن قوله فى بعض تلك الأشعار ، مخاطباً النفس الزكية[1] :

إنا لنأمل أن ترتدَّ ألْفَتُنَا ... بعد التباعد والشحناء والإحَنِ
وتنقضى دولةٌ أحكامُ قادتها ... فينا كأحكام قومٍ عابدى وَثَنِ
فانهضْ ببيعتكم ننهضْ بطاعتنا ... إن الخلافة فيكم يا بنى الحسنِ

وطبيعى أن يذيقه المنصور وبال تحريضه على الثورة ، إذ يقال إنه أمر بدفنه حيًّا . ومن شعراء الزيدية وهذه الثورة هرون بن سعد العِجْلى ، وقد ولاّه إبراهيم ابن عبد الله فى أثنائها واسطاً ، وبمجرد قضاء المنصور عليها توفى وهو يهم بدخول البصرة[2] ، وفى عيون الأخبار له قصيدة يرد فيها على غالية الشيعة من الإمامية رَدًّا عنيفاً ، ناقضاً ما زعمه رافضتهم من غلو فى تصور جعفر الصادق إمامهم ، حتى ليجعله بعضهم إلهاً وبعضهم رسولا ، مع ما ينحلونه من علم الغيب وأنه دَوَّنَ كل ما يحتاج إليه من هذا العلم فى جلد يسمونه جَفْراً ، يقول فى تضاعيف قصيدته[3] :

ألم ترَ أن الرَّافضين تفرَّقوا ... فكلُّهمُ فى جعفرٍ قال مُنْكَرَا
فطائفةٌ قالوا إلٰهٌ ومنهمُ ... طوائف سمَّته النبىَّ المطهَّرا
فإن كان يرضى ما يقولون جَعْفَرٌ ... فإنى إلى رَبِّى أُفارقُ جَعْفَرا

---

(١) مقاتل الطالبيين (نشر عيسى الحلبى) ص٤٧٦ والعمدة لابن رشيق ١/٤٥ .

(٢) انظر مقاتل الطالبيين ص ٣٣١ وما بعدها وص ٣٥٩ وما بعدها .

(٣) عيون الأخبار ٢/١٤٥ .

ومن عجبٍ لم أَقْضِهِ جِلْدُ جَفْرِهِم　　بَرِئْتُ إلى الرحمن ممن تجفَّرَا

وكانت البصرة بيئة هذه النحلة ، ولعل ذلك ما جعل بعض المعتزلة يعتنقها ، من مثل بشر بن المعتمر ، وربما كان أكبر دليل على زيديته أننا نراه يهاجم غالية الإمامية على نحو ما هاجمهم هرون بن سعد العجلى[١]. ومن شعراء الزيدية غالب ابن عثمان الهمدانى ، وله مراث فى النفس الزكية وأخيه إبراهيم تقطر أسى وحزناً عميقاً[٢] . وثار ، كما مر بنا فى الفصل الأول ، لعهد الهادى الحسين بن على الحسنى فى مكة ونازله جيش عباسى فى « فخ » فقُتل هو وكثيرون من أهله وتُركوا فى العراء للسباع والعقبان ، مما جعل الشعراء من الزيدية يندبونهم آحرّ ندب وأشجاه[٣] . ويتحول نشاط هذه النحلة إلى خراسان والطالقان[٤] ، ويتكاثر الثائرون والمقتولون من أئمتها فى تلك البلاد النائية . ومن أهم ثورات الزيدية ثورة[٥] ابن طباطبا بالكوفة لأول خلافة المأمون ، ويقضى عليها قضاء مبرماً وطبيعى أن يكثر شعراء الزيدية من رثاء المقتولين فى هذه الثورات والتفجع عليهم ، مما نقرؤه فى كتاب مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى مفصلا أوسع تفصيل .

ولم يكن الإمامية بفرقهم المختلفة يشهرون السيوف فى وجوه بنى العباس ، فقد جعلوا جميعاً التقية مبدأ أساسياً فى نحلهم المختلفة ، واتخذوا الدعوة السرية وسيلتهم فى جمع الناس من حولهم بالكوفة ، واجتمع حولهم فعلا خلق كثير يبطنون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يعلنون ، وكأنهم كانوا يؤمنون جميعاً بأن الثورة على العباسيين لم يحن موعدها . وقد تفرقوا شيعاً كثيرة ، ومرّ بنا فى الفصل السابق أن لمعدان الأعمى قصيدة صنف فيها طوائف الإمامية الرافضة والغالية وطوائف الزيدية وعقائدهم جميعاً ، مقدماً عليها نحلة فرقته الشُّمَيْطية الغالية ، ونراه يلوم زيد بن على زين العابدين لعدم أخذه بمبدأ التقية ، إذ سَنّ لأصحابه من بعده إعلان ثورتهم وامتشاقهم للحسام فى وجه الحكام مما جعل الخلفاء العباسيين يوالون فيهم قتلهم

(١) الحيوان ٦/ ٢٨٤ .

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٣٠٤ ، ٣٨٤ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٤٥٨ وما بعدها .

(٤) الملل والنحل للشهرستانى (طبع لندن) ص ١١٧ .

(٥) انظر فى هذه الثورة وأنها زيدية مقاتل الطالبيين ص ٥١٨ وما بعدها .

وسفك دمائهم ، يقول فى قصيدته[١] :

سَنَّ ظُلْمَ الإمام فى القوم زَيْدٌ إن ظُلْمَ الإمام ذو عُقَّالِ[٢]

والمهم أن مبدأ التقية أتاح لكثيرين من شعراء الإمامية أن لا يجاهروا الناس فضلا عن الخلفاء بحقيقة نحلهم ، وقد مضى كثير منهم يعلنون موالاتهم لبنى العباس ، مادحين لهم ، بل إن منهم مَنْ سخّر شعره للدفاع عن حقهم فى الخلافة مبالغة فى السّر والتقية على نحو ما سنرى عند منصور النمرى . وربما كان الشاعر الإماميُّ الوحيد الذى جاهر بنحلته دعبلا ، إن صح أنه كان متشيعًا حقًا فضلا عن إماميته . ومن شعرائهم القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف ، وقد مرَّ بنا فى الفصل السابق أنه سخّر كثيراً من شعره فى رثاء الحيوان والطير ، وقد عمل فى خلافة المأمون فكانت إليه جباية السواد ، ونرى الصولى يروى له فى كتاب الأوراق أشعاراً شيعية مختلفة فى مديح بنى هاشم وبيان فضائل على بن أبى طالب وفى رثاء الحسين وندبه ندبا حارًا ، ملوحا بيده فى وجه أبى بكر وعمر وفى وجوه خصوم الإمامية ، مشيراً إلى مهديهم الذى سيأخذ بثأرهم ، يقول[٣] :

إنى لأرجو أن تنالهمُ منى يَدٌ تشفى جَوَى الصَّدْر
بالقائم المهدىّ إن عاجلا أو آجلا إن مُدَّ فى عُمْرى

ومثله محمد بن وهيب كان يفد على وزراء بنى العباس وخلفائهم ، وهو غال فى تشيعه وإماميته ، ويروى الرواة ، أنه تردَّد على مجالس تُذْكَرُ فيها فضائل أبى بكر وعمر وعثمان ، ولا يُذْكَرُ فيها شىء من فضائل على ، فتولَّى حنقا ، وهو يقول[٤] :

أغدو إلى عُصْبَةٍ صُمَّتْ مسامعهم عن الهُدَى بين زنديقٍ ومأفونِ
لا يذكرون عليًّا فى مشاهدهم ولا بنيهِ بنى البِيض الميامينِ
لو يستطيعون من ذكرى أبا حَسَنٍ وفضله قطَّعونى بالسَّكاكينِ

(١) مقاتل الطالبيين ص ٤١٩ والبيان والتبيين ٣/٣٥٧ .
(٢) عقال : من العقل وهو مغرم الجناية .
(٣) كتاب الأوراق للصولى (أخبار الشعراء) ص ١٨٢ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٤٦ .

ولستُ أترك تفضيلى له أبدًا حتى الممات على رَغْم الملاعينِ

وكثر فى هذا العصر بين شعراء الشيعة الحديث عن على بن أبى طالب وفضائله ، ومرَّ بنا فى الفصل الرابع أن لبشر بن المعتمر مزدوجة صوَّر فيها منزلته وكيف أنه يرتفع فوق خصومه من الخوارج درجات . وينبغى أن نشير هنا إلى ما كان من محاولة المأمون عقد البيعة من بعده لعلى الرضا الإمام السابع عند الشيعة الإثنى عشرية ، وأن أسرته ثارت عليه فى بغداد ، وأن عليًّا الرضا توفِّى سريعاً ، فانصرف عن فكرته ، وقد ظل يوالى العلويين على الرغم من قيامهم ببعض ثورات فى خلافته ، إذ نراه — كما أسلفنا فى غير هذا الموضع — يكتب إلى الآفاق فى سنة ١١٢ للهجرة بتفضيل على بن أبى طالب على جميع الصحابة ، مما جعل شعراء الشيعة يطمئنون إليه ، ونفذ بعض الشعراء من غيرهم مثل أبى تمام إلى النظم فى فضائل على إرضاء للدولة . وأيضًا ينبغى أن نشير هنا إلى كثرة الانقسامات بين الشيعة وما جرَّ إليه ذلك من أشعار انتصر فيها الشعراء لما اعتنقوه من بعض المذاهب الشيعية وفى كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى منثورات مختلفة من تلك الأشعار . وجديرٌ بنا أن نعرض لأبرز شعراء الشيعة فى العصر ، وهم السيد الحميرى ومنصور النَّمَرِى ودعبل وديك الجن .

السيد [1] الحميرى

هو إسماعيل بن محمد حفيد يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى الذى ترجمنا له فى الجزء الثانى من هذه السلسلة ، وقد تشككنا هناك فى نسبه من حمير واستظهرنا أنه يرجع إلى أصول إيرانية لما عُرف عنه من إتقانه الفارسية . على أننا نجد السيد

(١) انظر فى ترجمة السيد الحميرى وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٣٢ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٧/٢٢٩ وما بعدها والبيان والتبيين ٣/٣٦٠ والحيوان ٥/٣١٧ والفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٠ والملل والنحل للشهرستانى (طبعة لندن) ص ١١١ وروضات الجنات ص ٢٨ والنجوم الزاهرة ٢/٢٩ ، ٦٨ ، ٧٤ وفوات الوفيات فى إسماعيل وفرق الشيعة للنوبختى (طبعة ريتر) ص ٢٦ ، ومعرفة أخبار الرجال للكشى ١٨٤ وترجمة جده يزيد بن مفرغ فى الجزء الثانى من هذا الكتاب وحديث الأربعاء لطه حسين ٢/٣٠٥ .

يفتخر بحميريته ، وكانت أمه من الأزد اليمنيين ، ومن ثَمَّ يقول :

إنى امروٌ حِمْيَرِىٌّ غيرُ مُؤْتَشبٍ جَدِّى رُعَيْنٌ وأخوالى ذَوو يَزَنِ[1]

وقد وُلد لأبويه فى البصرة سنة ١٠٥ للهجرة ، وكانا من إباضيّة الخوارج ، فنشأ يسمع منهما سَبَّ على بن أبى طالب ، بل تكفيره وتكفير بعض الصحابة ، وعبثاً كان يراجعهما . ولم يابث أن أوغل فى التشيع لعلى وآله ، ويظهر أنه وقع لبعض أصحاب مذهب الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنيفية والمعتنقين لنظرية الغيبة والرجعة ، فإذا هو يصبح كيسانيًّا لحمًا وروحاً ، ولا ندرى هل حدث له ذلك فى البصرة أو حدث فى الكوفة فقد أقام بها ردحًا من الزمن . وأيًّا كان فقد اعتنق المذهب مبكراً وأصبح شيعة لأصحابه منذ أواخر عصر بنى أمية ، حتى إذا أظلّه العصر العباسى تمشت فى نفسه الفرحة لانتصار الهاشميين وتقويض حكم الأمويين ، وأخذ يستبشر بقيام الدولة العباسية ، وكأنه رأى فيها انتصاراً لمذهبه الشيعى ، إذ كان أبو هاشم بن محمد بن الحنفية قد أوصى من بعده ، كما مرَّ بنا ، لمحمد بن على العباسى ، وأوصى محمد للسفاح ومن ثَمَّ كانت إمامته وخلافته هو ومن تلاه من العباسيين صحيحة فى نظر الكيسانية أو على الأقل جمهورهم الذى كان يتبع فرقة أبى هاشم . وطبيعى لذلك أن نجد السيد الحميرى الكيسانى يهال لانتصار العباسيين حتى ليبادر أبا العباس السفاح حين خطب فى الكوفة خطبته المشهورة التى أخذ على إثرها البيعة من الناس قائلا :

دونكموهـــا يا بنى هاشمٍ فجدِّدوا من عهدها الدَّارِسَا
قد ساسها قبلكمُ ساسةٌ لم يتركوا رَطْباً ولا يابِسَا
ولستُ من أن تملكوها إلى مَهْبِطِ عيسى فيكمُ آيِسَا

وواضح أنه يهنئه بالخلافة لامزاً الأمويين الذين ملأوا الأرض ظلمًا وجوراً ، ويقول إنها لن تزال فيهم إلى هبوط عيسى بأخرة من الدنيا ، فهو لا يفكر فى زوالها عنهم ، بل هو يراها لهم خالصة حتى تفنى الأرض ومن عليها ، وتوفّى السفاح

---

(١) المؤتشب : غير الصريح فى نسبه . ذى يزن أحد أمراء اليمن الأقدمين .
وذو رعين : من ملوك اليمن ، وذو يزن : أبناء

وخلفه المنصور ، فأغدق عليه من صلاته السَّنية وأغدق عليه السيد الحميرى من مدحه بمثل قوله :

إن الإلٰه الذى لاشىء يشبهه أعطاكم الملكَ للدُّنيا وللدِّينِ
أعطاكُم الله ملكاً لا زوال له حتى يقادَ إليكم صاحبُ الصين
وصاحبُ الهند مأخوذاً برُمَّتِهِ وصاحب التُّرْك محبوساً على هُونِ

ومدح من بعده ابنه المهدى وظن طه حسين أن السيد الحميرى كان فى هذا المدح منافقاً ، فهو لا يستحلُّ أن يظهر غير ما يضمر وأن يمدح بنى العباس بلسانه ويلعنهم فى قلبه ، فيظفر بمالهم ويتقى شرهم ، كان يستحلُّ ذلك كما كانت تستحلُّه عامة الشيعة الذين كانوا يقولون بمذهب التقية[1] » . ولا تقية ولا نفاق ، وإنما شاعر كيسانى يمدح أوصياء عقيدته الكيسانية الذين أدالوا من بنى أمية وسلطانهم الجائر ، وهو بعد ذلك مخلص فى كيسانيته إخلاصًا بعيداً حتى ليؤمن بأن محمد ابن الحنفية حىٌّ وأنه راجع يومًا يقول :

حتى متى ؟ وإلى متى ؟ ومتى المدى؟ يا بن الوصىِّ وأنت حَىٌّ تُرْزَقُ

ويُرْوَى أن شيطان الطاق محمد بن على بن النعمان أحد متكلمى مذهب الشيعة الإمامية ناظره يوماً فى عقيدته الكيسانية يريد أن يجذبه إلى عقيدته ، وغلبه فى مناظرته ، غير أن السيد لم يلبث أن أنشأ قصيدة أدارها على أبيات كثيِّر سلفه الكيسانى فى العصر الأموى التى تجرى على هذا النمط :

ألا إن الأئمةَ من قريشٍ ولاةَ الحقِّ أربعةٌ سواءُ
علىٌّ والثلاثةُ من بنيه همُ أسْباطه والأوصياء
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وحلم وسبطٌ غيَّبَتْه كَرْبَلاءُ
وسبْطٌ لا يذوق الموت حتى يقودَ الخيلَ يَقْدُمها اللِّواء

والسبط الأول الحسن والثانى الحسين المقتول بكربلاء. والثالث إمامه محمد بن الحنفية ، وكثيِّر يقول إنه لا يزال حَيًّا لم يذق الموت وأنه سيعود فى جيش لَجِبٍ

(١) حديث الأربعاء ٢/٣٠٧ .

وكان السيد الحميرى فى القرن الثانى لا يزال يؤمن مثله برجعته . وزعم بعض الرواة أنه رجع بأخرة من حياته عن كيسانيته واعتنق مذهب الإمامية أصحاب جعفر الصادق ، وأجروا على لسانه :

تجعفرتُ باسم اللهِ واللهُ أكبرُ وأيقنتُ أن الله يعفو ويغفرُ

غير أن أبا الفرج ردَّ ذلك قائلا هو ورواته إنه ظل على كيسانيته حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه كان أكثر شعراء القرن الثانى تمجيداً لعلى وبنيه ، فقد أنفق حياته فى نظم أخبارهم ومناقبهم ، ويقول ابن المعتز إنه لم يترك فضيلة معروفة لعلى بن أبى طالب إلا نقلها إلى الشعر ، وقد كرَّر طويلا ما تدَّعيه الشيعة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى له بالخلافة من بعده عند غَدير خُمٍّ بين مكة والمدينة ، وفيه يقول :

أقسم بالله وآلائــهِ والمــرءُ عما قال مسئولُ
إن على بن أبى طالبٍ على التُّقَى والبرِّ مَجْبُولُ

ولعل أطول قصائده الشيعية قصيدته التى تسمى المذهبة ، وقد عُنى بها الشيعة وشرحوها مراراً ، وهو يستهلها بذكر الأمويين ومسير عائشة رضى الله عنها إلى البصرة مع طلحة والزبير ، يقول :

أين التطرُّف بالولاءِ وبالهوى أ إلى الكواذب من بروق الخُلَّبِ
أإلى أمية أم إلى الشِّيع التى جاءت على الجمل الخِدَبِّ الشَّوْقَبِ[1]
تَهْوِى من البلد الحرام فنبَّهت بعد الهدوِّ كلاب أهل الحَوْأَبِ

وهو يشير إلى أن كلاباً نبحت أم المؤمنين عند بئر الحوأب ، وكان يفرط فى سبِّها وسب طلحة والزبير وأبى بكر الصديق وعمر وكثير من الصحابة لا يَرْعوى ولا يزدجر ، وكان يستطيع أن يسجِّل لعلى ما شاء من فضائله ، دون أن يزج بنفسه فى هذه المضايق الوعرة غير مراع لجلة الصحابة وأمهات المؤمنين أى حرمة ، ولبئس ما قال فى عائشة وصاحبيها :

---

(١) الخدب : البعير الضخم . الشوقب : الطويل .

جاءتْ مع الأشْقَيْن فى هودجٍ ... تُزْجى إلى البصرة أَجْنادها
كأنّها فى فعلها هِرّةٌ ... تريد أن تأْكل أولادها

ويروى أن المهدى جلس يومًا يعطى قريشاً صلاتها وهو ولى عهد ، فبدأ ببنى هاشم ثم سائر قريش ، ولم يلبث السيد أن وفد عليه بقصيدة يذم فيها عشيرتى عمر وأبى بكر الصديق وينهاه أن يعطى أحداً منهما صلته ، ولباه المهدى. وقد روى أبو الفرج قطعة منها ، وقال إنه حذف باقيها لقبح ما جاء فيها من السبِّ والشتم .

ولعل فى ذلك ما يدلُّ على أن السيد الحميرى كان غالياً فى تشيعه غلوًّا قبيحاً ، ولو أنه لم يشب مديحه لعلى وبنيه بهذا السبِّ المنكر لتداول شعره الرواة ، إذ كان شاعراً بارعًا ، ومن مستحسن شعره فيهم قوله ناظماً ما رُوِى من أن الحسن والحسين،أتيا الرسول فوجداه ساجداً فركبا على ظهره ، فقال عمر : نعم المطىُّ مطيكما :

أتى حسنًا والحسينَ الرسولُ ... وقد برزا ضَحْوَةً يلعبانِ
فضمَّهما ثم فدَّاهما ... وكانا لديه بذاك المكانِ
وراحا وتحتهما عاتقاه ... فنعم المطيَّة والراكبانِ

وكان يكثر من رثاء الحسين رثاء يستنزف الدمع ويذيب القلب حسرات ، ويقال إنه استأذن يوما على جعفر الصادق فأذن له وأقعد حُرَمَه خلف سِتْر ، فدخل ، فأنشده قوله :

امْرُرْ على جَدَثِ الحُسَـ ... ـيْنِ فقُلْ لأَعْظُمه الزَّكِيَّهْ
آ أَعظمًا لا زلتِ من ... وَطْفاءَ ساكبةٍ رَوِيَّهْ[1]
وإذا مررتَ بقبرِهِ ... فأَطِلْ به وقْفَ المَطِيَّهْ
وابكِ المطهَّر للمطهَّـ ... ـرِ والمطهَّرة النَّقِيَّهْ

---

(١) الوطفاء : السحابة المحملة بالأمطار الغزيرة .

كبُكاءِ مُعْوِلةٍ أتَتْ يومـاً لواحدها المنيَّه

فسالت دموع جعفر على خديه مدراراً وارتفع النشيج والصراخ فى داره فأمره بالإمساك فأمسك .

وللسيد وراء تشيعه ومدائحه للعباسيين مدائح فى بعض ولاة البصرة والأهواز ، وله أهاج فى المرجئة وفى عبد الله بن سوار قاضى البصرة الذى ردَّ شهادته لقذفه فى الصحابة ، وقد شكاه للمنصور فانتصف له منه . ويقال إنه كان يعكف على الخمر ، وليس له فيها أشعار مذكورة . وفى الحق أنه عاش للتشيع ينفق فيه أيامه وقصيده ، وكان يعرف كيف يوازن بين جزالته وعذوبته ، مع الرونق والحلاوة ، ولعل ذلك ما جعله يتحامى فيه الغريب واللفظ الآبد ، حتى يلذَّ الأسماع والأفئدة وحتى يسير على الشفاه والألسنة . وما زال هذا دأبه حتى توفى سنة ١٧٣ للهجرة .

منصور[1] النَّمَرِى

هو منصور بن الزبرقان بن سلمة[2] من قبيلة النَّمِر بن قاسط من أهل الجزيرة وهو تلميذ العتابى المتكلم وراويته وعنه أخذ ومن بحره استقى وتشبَّه كما يقول أبو الفرج ، ويُقال إنه وَصَفه للفضل بن يحيى بن خالد البرمكى ونوَّه به وقرَّظه ، فاستقدمه من الجزيرة ، فأنشده بعض مدائحه فيه ، وحَظِىَ عنده ، ولم يلبث أن وصله بالرشيد ، ووقع من نفسه خير موقع ، إذ مضى يمدحه على طريقة مروان بن أبى حفصة بِنَفْى الإمامة عن أبناء على بن أبى طالب وبيان أنها حق خالص للعباسيين ، وأنهم لا يزالون يطوِّقون رقابهم بالمنن ، وهم يجحدونها ، فيثورون ، وكثيراً ما يتلقون ثوراتهم بالعفو عنهم على نحو ما صنع الرشيد بيحيى بن عبد الله ، فإنه اكتفى بسجنه ، ولم يقتله ، وفى ذلك يقول :

بنى حَسَنٍ وقُلْ لبنى حُسَيْنٍ عليكم بالسداد من الأمورِ

(١) انظر فى أخبار النمرى وأشعاره ابن المعتز ص ٢٤٢ وابن قتيبة ٨٣٥ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ١٤٠ وتاريخ بغداد ١٣ / ٦٥ والبداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٢١٢ وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ٢ / ٢٧٤ وما بعدها وزهر الآداب ٣ / ٦٨ .

(٢) فى بعض المصادر منصور بن سلمة بن الزبرقان .

أميطوا عنكمُ كذبَ الأمانى وأحلامًا يَعِدْنَ عِداتِ زُورِ
مننتَ على ابن عبد الله يحيى وكان من الحتوفِ على شَفيرِ
يَدٌ لك فى رقاب بنى علىٍّ ومَنٌّ ليس بالمَنِّ الصغير
وإنك حين تُبْلغهم أذاةً – وإن ظلموا – لمحزونُ الضمير
فإن شكروا فقد أنعمتَ فيهم وإلا فالنَّدَامة للكَفُـورِ
وإن قالوا بنو بنتٍ فحقٌّ وردُّوا ما يناسبُ للذكور
وما لبنى بناتٍ من تُراثٍ مع الأعمام فى ورق الزَّبور

ويقال إنه استخفَّ الرشيد حين أنشده هذه القصيدة ، فإذا هو يأمر الفضل ابن الربيع أن يدخله بيت المال ويدعه يأخذ ما يشاء ، فأخذ سبعاً وعشرين بَدْرَة . ومن روائع قصائده فيه قصيدته العينية ، ويقول ابن المعتز إنه أقام القيامة بحديثه فى مطلعها عن الشباب إذ يقول :

ما تنقضى حسرةٌ منى ولا جَزَعُ إذا ذكرتُ شباباً ليس يُرْتَجَعُ
بان الشبابُ وفاتتنى بلذَّتِهِ صروفُ دَهْرٍ وأيامٍ لها خُدَع
ما كنت أوفى شبابى كُنْهَ غِرَّتِهِ حتى انقضى فإذا الدنيا له تَبَعُ
إن كنتِ لم تطعمى ثُكْلَ الشباب ولم تَشجَىْ بغصته فالعذر لا يقع

ويُقال إن الرشيد حين سمع منه هذا المطلع قال له : أحسنت والله ، لايتهنَّأ أحد بعيش حتى يخطر فى رداء الشباب ، وخرج إلى المديح ملوحا فى وجه العلويين بمثل قوله :

يا ابن الأئمة من بعد النبىِّ ويا ابْـ نَ الأوصياء أقرَّ الناسُ أو دفعوا
وما لآل علىٍّ فى إمارتكم حَقٌّ وما لهمُ فى إرْثكم طَمَعُ
العمُّ أولى من ابن العمِّ فاستمعوا قولَ النَّصيح فإن الحقَّ يُسْتَمَعُ

وهو يشير إلى أن العباس عمَّ الرسول صلى الله عليه وسلم يحجب على بن أبى طالب ابن أخيه كما تقضى بذلك فريضة الإرث فى الإسلام . وكان لا يزال يحيط

هرون بهالة من القدسية حتى ليرفعه على آل الرسول جميعاً ، وحتى ليجعل من يشتمل عليه سخطه لا ينتفع بدينه ولا بصلواته ، يقول فى القصيدة السالفة :

أىّ امرىء بات من هرون فى سَخَطٍ   فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ

ويقول فى قصيدة ثانية :

يا خير ماضٍ وخير باقٍ   بعد النبيين فى الأَنامِ

ومن قصيدة له ثالثة :

آلُ الرسول خيارُ الناس كلِّهمِ   وخيرُ آلِ رسول الله هرونُ

ولم يكن منصور فى كل هذه الأشعار مخلصاً ، بل كان يظهر غير ما يضمر ، إذ كان شيعيًّا إماميًّا ، وكأنه كان يتخذ تلك الأشعار متجراً ، ليعيش آمناً ، ولينال ما يريد من طيبات الحياة ومتاعها معتمداً على ما يؤمن به الإمامية من التقية . وقد زعم المرتضى فى أماليه أنه « كان ينافق الرشيد ويذكر هرون فى شعره ويُريه أنه من وجوه شيعته وباطنُه ومرادُه بذلك أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام لقول النبى ، صلى الله عليه وآله ، له : أنت منى بمنزلة هرون من موسى » ونراه يكثر من مدح آل الرسول والتنديد بالأمويين والعباسيين ، ومن خير ما يصور ذلك لاميته وفيها يقول :

شاءٌ من الناس راتعٌ هامِلْ   يعلِّلون النفوسَ بالباطِلْ(١)

تُقْتَلُ ذريَّة النبيِّ ويَرْ   جون جِنانَ الخلود للقاتلْ

ويلك ياقاتلَ الحسين لقد   بُؤْتَ بحمْلٍ يَنُوءُ بالحامل

ما الشكُّ عندى فى كُفْر قاتلهِ   لكننى قد أشك فى الخاذلْ

وعاذلى أننى أُحبُّ بنى   أحمد فالتُّرْبُ فى فم العاذل

قد دِنْتُ ما دينكم عليه فما   وصلتُ من دينكم إلى طائلْ

دينكمُ جَفْوَةُ النبيِّ وما الـ   ـجافى لآل النبيِّ كالواصل

---

(١) هامل : المتروك ليلا ونهاراً .

obeikandi.com

وقد مضى فى القصيدة ينكر موقف أبى بكر وعمر من دعوى فاطمة إرث « فدك » زاعماً أنهما ظلماها ، ومطالباً بمن يثأر لها من ظلمتها ، يقول :

مظلومةٌ والنبيُّ والدُها تدير أرجاء مُقْلَةٍ حافلْ
ألَا مَساعيرُ يغضبون لها بسَلَّة البِيض والقَنا الذابل[1]

وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين أستاذه العتابى ، فأسخط الرشيد عليه ، غير أنه عاد فعفا عنه وأوسع له فى مجالسه ، وانتهز العتابى منه يوماً فرصة ، فذكر له حقيقة النمرى وأنه شيعى غال فى تشيعه ، وأنشده اللامية الآنفة وأشعاراً أخرى من مثل قوله :

آلُ الرسول ومن يحِبُّهُمُ يتطامنون مخافة القَتْلِ
أَمِنَ النصارى واليهودُ وهم من أُمَّةِ التوحيد فى أَزْل[2]

فاستشاط الرشيد غضباً ، وبعث إلى الرَّقة ، وكان مقيماً بها ، مَنْ يقتله ، غير أن رسوله وجد جنازته تستقبله ، فانكفأ راجعاً إلى الرشيد ، فأعلمه خبره .

وممن مدحهم وأشاد بهم يزيد بن مَزْيد الشيبانى ، وكان من مُدَّاح الفضل ابن يحيى البرمكى كما مرَّ بنا ، وقد بكاه حين نكبه الرشيد هو وأباه وأخاه جعفراً لسنة ١٨٧ ، وفى ذلك ما يدل على أن وفاته كانت بعد نكبتهم . وواضح مما أنشدناه من أشعاره أنه كان يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه وانتقاء معانيه ، وكان ما يزال يجهد فكره وخياله حتى يأتى بالطرائف النادرة من مثل قوله :

ولقد تبيت أناملى يَجْنين رُمَّانَ النُّحُورْ

ومن المحقق أنه لم يكن يتعلق بلهو ولا مجون ولا خمر شأن كثير من معاصريه ، وأنه كان يكتفى من ملاهى عصره بالسماع إلى الغناء واجداً فيه ما يبتغى من لذة ومتاع .

---

(١) مساعير : جمع مسعار ، وهو موقد الحرب . البيض : السيوف . الذابل : الرقيق الحاد .
(٢) أزل : ضيق وشدة .

دعبل [١]

هو دعبل بن على بن رَزين ، وقيل دعبل لقبه ، واختلفوا فى اسمه هل هو محمد أو الحسن أو عبد الرحمن، وهو من خزاعة صليبة لاولاءً [٢]، ومن بيت شعر ، فقد كان أبوه شاعراً متوسطًا ، وكذلك عمه عبد الله وأخواه على ورزين وولداه الحسين وعلى وابن عمه محمد بن عبد الله المشهور باسم أبى الشيص . وقد وُلد دعبل بالكوفة سنة ١٤٨ للهجرة ويظهر أنه اختلف مبكرًا إلى حلقات الدرس . على أننا نجده فى شبابه يصحب الشُّطَّار ويشترك معهم فى مغامراتهم، مما يؤكد أنه كان فيه نزعة متأصلة إلى الشر وارتكاب الجنايات ، وقد دفعته فيما بعد إلى أن يصبح أكبر هجاء فى عصره ، وأن يعمَّ بهجائه الخلفاء وكل من قدَّموا له صنيعاً . ويظهر أن مواهبه الشعرية تفتحت مبكرة ، فمضى يختلط بالشعراء ، وانعقدت بينه وبين مواطنه مسلم بن الوليد مودة كان لها أثر عميق فى شعره إذ عنى فيه على شاكلة مسلم بالبديع وبالجزالة ونصاعة القول ، ويرمز الرواة لذلك بأن مسلماً صنع قوله :

مستعبرٌ يبكى على دِمْنَةٍ ورأسُه يضحك فيه المَشِيبْ

فما زال دعبل يدير البيت فى نفسه ، محاولا أن يبنى على معناه قطعة فى الغزل حتى صنع قطعته التى فتحت له باب الشهرة على مصاريعه ، إذ قال فى بكاء الشباب ووقوعه فى شباك الهوى :

أين الشبابُ ؟ وأيَّةً سَلكا ؟ لا، أين يُطْلَبُ ؟ ضَلَّ بل هلكا

---

(١) انظر فى دعبل وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٤ وابن قتيبة ص ٨٢٥ والأغانى (طبعة الساسى) ١٨/ ٢٩ وتاريخ بغداد ٨/ ٣٨٢ والموشح ص ٢٩٩ وابن خلكان ١/ ١٧٨ ومعجم الأدباء ١١/ ٩٩ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/ ٢٢٧ وشذرات الذهب ٢/ ١١١ ومعرفة أخبار الرجال للكشى ٣١٣ وأخبار الرجال للنجاشى ١١٦ ومرآة الجنان لليافعى ٢/ ١٤٥ ولسان الميزان ٢/ ٤٣٠ والنجوم الزاهرة ٢/ ٣٢٢ . وجمع شعره ونشره كل من محمد يوسف نجم ببيروت وعبد الصاحب الدجيلى فى النجف بالعراق وعبد الكريم الأشتر فى دمشق .

(٢) ممن زعموا أنه خزاعى ولاء عبد الله بن طاهر (انظر ترجمته فى الأغانى) . وراجع ابن خلكان ولسان الميزان وابن كثير فى البداية والنهاية ١٠/ ٣٤٨ .

لا تعجبي يا سَلْمَ من رَجُل ضحك المشيبُ برأسه فبكى
ياليت شعرى كيف نَوْمكما يا صاحبيَّ إذا دمى سُفِكا
لا تأْخذا بظُلامتى أحدًا قلبي وطرفى فى دمى اشتَركا

وغنى بالأبيات بعض المغنين بين يدى الرشيد ، فطرب ، وسأل عن ناظمها ، فقيل له دعبل ، فأمر بإحضاره وأرسل إليه بعشرة آلاف درهم وخلعة من الثياب ، وسار دعبل إليه ، وأنشده بعض شعره فاستحسنه وأجرى عليه رزقاً سنيًّا ، ولم يلبث أن ارتحل إلى خراسان ووليها العباس بن جعفر الخزاعى (١٧٣ — ١٧٥ هـ) فأكرمه وولاه على سِمِنْجان إحدى بلاد طَبَرِسْتان. وعاد إلى بغداد ونزل الكرخ حيث اللهو والقصف ، منشداً مثل قوله :

إنما العيشُ خلالٌ خمسةٌ حَبَّذا تلك خلالا حبَّذا
خدمةُ الضيف وكأْسٌ لذَّةٌ ونديمٌ وفتاةٌ وغِنـا

وتُؤْثَرُ له فى الخمر بعض الأشعار ، وله بجانبها غزليات قليلة ، وهو يُعْنَى فيها ببعض فنون البديع على شاكلة قوله مطابقًا :

دموعُ عينى لها انبساطٌ ونومُ عينى به انقباضُ

وليس فى ديوانه مديح للرشيد ولا للبرامكة مما يدل على أنه ظل بعيداً عن القصر وأهله ووزرائه ، وحقًّا تُرْوَى له بعض أبيات فى البرامكة حين نكبهم الرشيد ، ولكنها لا تدخل فى باب الرثاء إنما تدخل فى باب العظة والاعتبار . وقد ظل لا يلم بالقصر فى عصر الأمين ، ونراه يخرج إلى الحج فى سنة ١٩٨ للهجرة ، ولا يعود إلى بغداد ، بل يرتحل إلى مصر ووليها المطلب بن عبد الله الخزاعى (١٩٨ — ٢٠٠ هـ) وفيه يقول :

زمنى بمُطَّلِبٍ سُقيتَ زماناً ما كنت إلا روضة وجنانا
كلُّ النَّدَى إلا نداك تكلُّفٌ لم أرض غيرك كائناً من كانا
أَصْلَحْتَنى بالبِرِّ بل أفسدتنى وتركتنى أتسخَّط الإحسانا

ولم يكتف المطلب بما أغدق عليه من البِر والنوال ، فقد ولاَّه على أسوان ،

وسرعان ما شعر فى هذا البلد البعيد عن بغداد بوحشة شديدة، وعبث حنينه إليها بقلبه ، فإذا هو ينظم أبياته المشهورة فى الحنين إلى الوطن وقد أنشدناها فى الفصل الرابع .

ولم تلبث الأمور أن فسدت بينه وبين المطلب ، فإذا هو يهجوه هجاء مقذعاً، كافراً يده عنده ، وكان قد ولى الموصل قبل ولايته على مصر ، فقال فى بعض هجائه له :

تعلِّق مصرُ بك المخزياتِ وتبصق فى وجهك المَوْصِلُ

وأخذ يكثر من هجائه ، مولياً وجهه نحو بغداد ، وتبعه المطلب معزولا عن مصر ، وتلطَّف له فكفَّ لسانه عنه .

وأتاه نبأ عهد المأمون لعلى الرضا بالخلافة من بعده لسنة ٢٠١ وكان المأمون لا يزال بخراسان فارتحل إليهما ولم يكد يمثل بين أيديهما حتى أنشد تائيته المشهورة.

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وَحْيٍ مقفرُ العرصاتِ

وقد صور فيها ما نزل بالعلويين من كوارث فى « كربلاء » و « فخ » نائحاً على قتلاهم وخاصة الحسين نواحاً مؤثراً ويفيض فى حرمانهم من الاستمتاع بحقهم فى الخلافة آملا فى خروج مهديهم المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت ظلماً وجَوْراً ، وفيها يقول :

ملامَك فى آلِ النبيِّ فإنهم أحِبَّاىَ ما عاشوا وأهلُ ثقاتى
فيارَبِّ زدنى من يقينى بصيرةً وزِدْ حُبَّهم يارَبِّ فى حسناتى
ألم تر أنى من ثلاثين حِجَّةً أروح وأغدو دائمَ الحسرات
أرى فَيْئَهُمْ فى غيرهم متقَسَّماً وأيديَهم من فَيْئهم صَفِراتِ[1]
ولولا الذى أرجوه فى اليوم أو غدٍ تقطَّع قلبى إثرهم حَسراتِ
خروجُ إمامٍ لا محالةَ خارجٌ يقوم على اسم الله والبركاتِ

(١) الفىء : الخراج وغنائم الحرب ، يريد أن العلويين سلبوا حقهم فى سياسة الدولة والقيام على شئون المال . صفرات : خالية .

يميِّز فينا كلَّ حَقٍّ وباطلٍ ويَجْزِى على النَّعْماء والنَّقِماتِ

وأعجب بالقصيدة المأمون وعلى الرضا ، فأعطاه أولهما عشرة آلاف درهم من دراهم كان قد ضربها باسم الرضا ، أما الرضا فخلع عليه حُلَّة من ثيابه ، ويقال إن أهل مدينة « قُمْ » الشيعية اشتروا منه الحلة بثلاثين ألف درهم ، كما اشتروا الدراهم المضروبة باسم الرضا ، كل درهم بعشرة . ويقول ابن المعتز إن أهل هذه المدينة قسّطوا له كل سنة خمسين ألف درهم . وتطورت الظروف سريعاً فتوفى على الرضا بطوس سنة ٢٠٣ وهو فى طريقه مع المأمون إلى بغداد ، ودفن بها ، بجانب قبر هرون الرشيد ، ولم يكد النعى يبلغ دعبلا ، حتّى قال :

قبران فى طوسَ خير الناس كلِّهم ِ وقبرُ شرِّهم ِ هذا من العِبَرِ
ما ينفع الرِّجْس من قُرْب الزكيِّ ولا على الزَّكِيِّ بقرب الرِّجْس من ضرر

ولم يكن الرشيد رجساً كما يقول ، فقد كان طهراً ، إذ كان يحج سنة ويغزو سنة على نحو ما هو معروف فى تاريخه ، وقد أنزل بالروم هزائم ساحقة ، وليس ذلك فحسب ، فإن له يداً على دعبل إذ استقدمه من موطنه وفرض له راتباً سنيًّا كما مرَّ بنا ، ولكن كأنما ينطوى دعبل على جحود غريب ، حتى ليطعن كل من قدم له صنيعاً . وله شعر شيعى كثير ، وقد أكثر فيه من الحديث عن فضائل على بن أبى طالب ، كما أكثر فيه من بكاء الحسين ورثائه بمثل قوله :

رأْسُ ابن بنتِ محمدٍ ووصيِّه ياللرِّجال على قناةٍ يُرْفَعُ
والمسلمون بمنظرٍ وبمَسْمَعٍ لا جازعٌ من ذا ولا متخشِّع

وهو يبدو فى شعره الشيعى إماميًّا وقد تشكك أبو العلاء فى تشيعه ، فقال إنه لم يكن صادقاً فيه وإنه إنما كان يريد التكسب به[١] ، ولعله محق فى تشككه ، لأن مثل دعبل المنطوى على كره الناس لا يمكن أن يخلص لآل البيت ، إلا أن يكون وراء ذلك باعث يدفعه لأن يقول ما لا يعتقده ، وكأن أموال «قم» هى التى دفعته لما كان ينظم من أشعار شيعية ، كما دفعته إلى هجاء الرشيد وغيره من الخلفاء ،

---

(١) رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) ص ١٣٤ .

ويقال إن المأمون كان إذا سمع هجاءه فيه أو فى بعض وزرائه ضحك ، وكان ذلك يدفعه إلى النمادى حتى ليقول له مهدداً وكأنه يهدده بلسان أهل قم :

إنى من القوم الذين سيوفُهم قتلتْ أخاك وشرَّفَتْك بمقعدِ

وهو يشير إلى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وقاتل أخيه الأمين من موالى قبيلته خزاعة . على أن هذا الولاء لطاهر لم ينفعه عنده ، فقد رماه بسهم لاذع من سهام هجائه التى كان ما ينى يرسلها على جميع من حوله ، وكان طاهر أعور ، ويلقب بذى اليمينين ، فقال :

وذى يمينين وعَيْنٍ واحـــدهْ نقصان عينٍ ويمين زائده

وولىَّ وجهه نحو صديقه القديم مسلم بن الوليد ، وكان الحسن بن سهل ولاَّه بريد جرجان ، فجفاه ولم يلقه ، وأثَّر ذلك فى نفس دعبل ، غير أنه لم يعمد إلى هجائه ، خوفاً من لسانه ، وقد مر بنا كيف كان مسلم يقذع فى هجائه وكيف كان يريشه سهاماً مصمية ، وكأنما خشى دعبل معرة هجائه إن هو عرض له بالهجاء ، فعاتبه عتاباً رقيقاً بأبياته المعروفة :

أبا مَخْلَدٍ كُنَّا عَقِيدىْ مودَّةٍ هوانا وقلبانا جميعاً معاً معا
غَشَشْتَ الهوَى حتى تداعَتْ أصوله بنا وابتذلتَ الوصل حتى تقطَّعا
فلا تَعْذُلنِّى ليس لى فيك مطمعٌ تخرَّقْتَ حتى لم أجد لك مرقعاً
فهَبْكَ يمينى استأُكلتْ فقطعتُها وجشَّمتُ قلبى صبرةً فتشجَّعا

ويقال إنه قصد عبد الله بن طاهر فى ولايته لخراسان (٢١٤ — ٢٣٠ هـ) فكان يصله فى الشهر بمائة وخمسين ألف درهم ، ومع ذلك لم يسلم من لسانه . ولعله لم يتعرض لخليفة بالهجاء كما تعرض للمعتصم ، فقد صَبَّ عليه شُواظاً ملتهباً من أهاجيه كقوله :

ملوكُ بنى العباس فى الكُتْب سَبْعَةٌ ولم تأتنا عن ثامنٍ لهمُ الكُتْبُ
كذلك أهلُ الكَهْف فى الكهف سبعةٌ كرامٌ إذا عُدُّوا وثامنهم كَلْبُ

وظل يرميه بسهام هجائه حتى توفى ، وخلفه ابنه الواثق ، فأسرع يطلق لسانه فيه ، جامعاً فى هجائه بينه وبين أبيه بمثل قوله :

خليفةٌ مات لم يحزنْ له أحدٌ وآخَرٌ قام لم يفرح به أحَـدُ

وروى الرواة له فى المتوكل بيتاً مقذعاً واحداً ، وفيه يهجوه باستيلاء مواليه من الجند الأتراك على الحكم حتى أصبح كأنه لعبة فى أيديهم ، بل أصبح لهم عبداً ، يقول :

ولستُ بقائلٍ قذَعاً ولكن لأمرٍ مَّا تعبَّدك العَبِيدُ

ولم يقف عند هجاء الأفراد ، فقد استعاد هجاء العصبيات القديم ، وكانت قصيدة الكميت الشيعى فى هجاء أصوله القحطانيين تؤذيه فعمد إلى نقضها بقصيدة نونية أودعها مثالب القبائل العدنانية . ولو أنه كان مخلصًا فى تشيعه حقًّا لأعلَى صلة التشيع بينه وبين الكميت على العصبية القبلية ، وخاصة أن الكميت كان قد مات منذ زمن بعيد . وأثار ذلك أبو سعد المخزومى فاندلعت بينهما معركة هجاء عنيفة . والحق أن الهجاء كان طبعاً ركَّب فى نفسه حتى لنراه يهجو بجانب كل من أسدى إليه صنيعة زوجتَه وأخاه رزينا وأهل مدينة «قم» بل الناس جميعًا ، يقول :

ما أكثر الناسَ ، لا ، بل ما أقلَّهمُ والله يعلم أنى لم أقل فَنَـدَا
إنى لأفتحُ عينى حين أفتحها على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا

وممن هجاهم فأقذع فى هجائه مالك بن طوق التغلبى ممدوح أبى تمام ، ويقال إنه وجد عليه موجدة شديدة جعلته يرسل له من اغتاله فى بعض قرى الأهواز . واختلف الرواة فى سنة وفاته ، فمنهم من جعلها فى عهد المعتصم ومنهم من تأخر بها إلى سنة ٢٤٦ للهجرة . وأكبر الظن أنه لم يتأخر إلى هذا التاريخ وأنه توفى لأوائل عهد المتوكل عقب هدمه لقبور الحسين والعلويين سنة ٢٣٥ .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شاعريته ، فقد كان شديد العناية بصياغته وكان لا يزال يغوص على المعانى الدقيقة ، ومن حين إلى حين يوشى شعره بزخرف البديع ، وله أبيات كثيرة دارت على الألسنة من مثل قوله :

إن الكرامَ إذا ما أسْهَلُوا ذكروا مَنْ كان يألفهم فى المنزل الخشِن

وهو أحد مَنْ برعوا لعصره فى علم الشعر ونقده ، مما جعله يؤلف فى أخبار الشعراء كتاباً نفيساً طالما استقى منه القدماء فى كتاباتهم .

ديك [1] الجن

هو عبد السلام بن رَغْبان ، اشتهر بلقبه ديك الجن ، وهو من سلالة شخص يسمى تميما من أهل مُؤْتَة بالشام أنعم الله عليه بالإسلام على يد مولاه حبيب بن مسلمة الفِهْرى صاحب معاوية . ويقول الجهشيارى إن جَدّ ديك الجن حبيب ابن عبد الله كان يتقلد ديوان العطاء لأبى جعفر المنصور . وولد ديك الجن لأبيه بحمص سنة ١٦١ للهجرة ، ويقول أبو الفرج « إنه لم يَبْرَحْ نواحىَ الشام ولا وَفَد إلى العراق ولا إلى غيره منتجعاً بشعره ولا متصدياً لأحد ، وكان يتشيع تشيعاً حسناً ، وله مراث كثيرة فى الحسين بن على منها قصيدته :

يا عَيْنُ لا للغَضا ولا الكثُبِ بُكا الرَّزايا سوى بُكا الطَّرَب

وهى مشهورة عند الخاص والعام ويُناح بها ، وله عدة أشعار فى هذا المعنى . ويقول أبو الفرج أيضاً إنه كان يكثر المقام عند أحمد بن على الهاشمى وأخيه جعفر فى سَلَمْيَة (من أعمال حمص) وكان يمدحهما كثيراً ، وقد بَرَّح به الحزن حين توفى أحمد وأبنه فى قصيدة طويلة معزِّيا بها أخاه جعفراً ، وقيل بل معزياً له عن زوجته ، وهى تصور غلوه فى التشيع إذ نراه يتمثله وكأنه إمام كبير من أئمة الشيعة ، ومن ثَمّ يخلع عليه بعض صفاتهم القُدْسية فى رأى شيعتهم من مثل قوله :

نحن نعزِّيك ومنك الهُدَى مُسْتَخْرَجٌ والنورُ مُسْتَقْبَلُ
نقول بالعَقْل وأنت الذى نأوِى إليه وبه نعقِلُ

---

(١) انظر فى ترجمة ديك الجن وأخبار وأشعاره الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/٥١ ووفيات الأعيان لابن خلكان والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٠٢ وراجع ديوانه نشر أحمد مطلوب وعبدالله الجبورى بدار الثقافة ببيروت ، وانظر أيضاً ديوانه جمع الملوحى والدرويش طبع حمص وما نقلاه فى مقدمته عن كتابى الكشكول للعاملى وتزيين الأسواق للأنطاكى .

وأنت علاَّمُ غيوبِ النَّثَا   يوماً إذا نَسْأَل أو نُسْأَلُ[١]
نَحن فداءٌ لك من أُمَّةٍ   والأَرضُ والآخر والأَوَّلُ

فهو يجعله مصدر الهدى والنور ومعقل العقل وعلام الغيوب ، وكأنه يرى فيه ما يراه الشيعة الغالون فى أئمتهم . ولم يلبث جعفر أن توفى فبكاه بكاء حاراً . وكان يضمُّ إلى هذا التشيع شعوبية شديدة على العرب وعكوفاً على اللذات وشكوكاً فى الدين ، حتى ليبدو أحياناً شاكاً فى البعث والنشور . ولم يبق من شعوبيته إلا آثار قليلة ، كقوله فى شعر له يخاطب به بعض أجواد العرب :

إن كان عُرْفُك مذخورًا لذى نَسَبٍ   فَاضْمُمْ يديك فإنى لست بالعربى[٢]
إنى امرؤٌ بازِلٌ فى ذِرْوَتَىْ شَرَفٍ   لقيصرٍ ولكسرى مَحْتِدى وأَبى[٣]

أما لهوه وعكوفه على الخمر فواضحان فى أشعاره ، ويقال إنه كان له ابن عم فيه تَقْوَى ، فكان لا يزال ينهاه ، وهو لا يَرْعَوِى ولا يَزْدَجِر ، ومن طريف نعته للخمر وساقيتها قوله :

تسقيك كأْسَ مُدامةٍ من كفِّها   ورديَّةٍ ومدامةً من ثَغْرِها

وقد ضاع أكثر شعره ، ولم يبق منه إلا أطراف قليلة ، وإلا ما دار حول قصته مع زوجته « ورد » وكانت نصرانية من أهل بلدته ، فشُغِف بها حُبًّا ، وأكثر فيها من غزله ، وبادلته حبًّا بحب ، وأسلمت واقترنت به ، وعاشا مدة هانئين ، وهو سادر فى مجونه وغَوايته . وكان ذلك — فيما يقال — يؤذى ابن عمه ، فرأى أن يعكر عليه صفو حياته ، وسولت له نفسه أن يرصد له فى إحدى أوباته من سَلَمْيَةَ مَنْ يرمى عنده زوجته بالسوء ، ولا ندرى كيف صَدَّق ذلك ، وقد مضى قالةُ السوء يزيدون فى وهمه ، حتى سارع يضربها بسيفه ، فقضت نَحْبَها ، ثم عرف براءتها فعاش يبكيها ويندبها ، نَدْبَ قلبٍ مزَّقه الألم والندم ، بمثل قوله :

رَوَّيْتُ من دمها الثَّرَى ولطالما   رَوَّى الهوى شَفَتَيَّ من شفتيها

---

(١) النثا : الخبر.
(٢) العرف : المعروف .
(٣) البازل : الكامل فى التجربة . المحتد : الأصل .

وقوله :

كنتِ زَيْنَ الأحياء إذ كنت فيهمْ ثم قد صِرْتِ زين أهلِ القبورِ

وقوله :

قَمَرٌ أنا استخرجته من دَجْنِهِ لبَلِيَّتِى وجَلوتُه من خِدْرِهِ
عهدى به مَيْتاً كأحسن نائمٍ والحُزْنُ يَسْفَحُ عبرتى فى نَحْرِهِ

وكان يتعلَّق غلاماً وينظم فيه بعض أشعاره ، فجمعت الكتب المتأخرة بين الزوجة والغلام ، وجعلته مصدر شكه واتهامه ، ثم توسعت فى القصة ، فجعلته يراهما فجأة فى بعض الأيام متعانقين تحت إزار واحد ، فقتلهما وأحرق جسديهما وصنع من رماد كل منهما كوزاً يحتسى به الخمر ، وتزعم القصة أنه كان إذا أخذ فى الشرب تناول هذا تارة وذاك تارة ثانية ، مقبِّلا لهما ، ثم أخذ يصبُّ الخمر وهو يصبُّ دموعه منشداً مراثيه فيهما وقلبه يتقطع حزناً وكمداً .

وواضح مما أنشدناه له أنه كان يُعْنَى بشعره ويروِّى فيه ، ويقول أبو الفرج إنه يذهب مذهب الشاميين فى أشعاره ، وكأنه يريد أن يقرنه بأبى تمام والبحترى ومَنْ كانوا يُعْنَوْن فى شعرهم بالبديع . وليس من شك فى أن أروع أشعاره ما نظمه فى بكاء صاحبته ، متفجعاً متحسراً نادماً كما لم يندم أحد ، وما زال يردِّد ذلك حتى توفى سنة ٢٣٥ للهجرة .

٣

شعراء البرامكة

مرَّ بنا فى الفصل الأول أن البرامكة ينحدرون من أسرة كانت تضطلع بسدانة معبد النوبهار البوذى فى بلخ ، وقد تألق اسم خالد بن برمك فى قيادته لبعض الجيوش الخراسانية التى قوَّضت حكم بنى أمية . ونرى السفاح يتخذه وزيرا له ويقيمه على بعض الدواوين ، كما نرى المنصور وابنه المهدى يقربانه منهما ويولِّيانه الولايات والأعمال الجليلة . وما زال عندهما فى حظوة حتى توفى سنة ١٦٦ للهجرة. وعرف

المنصور فضل ابنه يحيى ، فولاه ولايات مختلفة فى إيران وأذربيجان . ويظهر أن علاقة وثيقة مبكرة انعقدت بين زوجة يحيى والخيزران زوجة المهدى ، فإن زوجة يحيى حين ولدت ابنها الفضل فى ذى الحجة لسنة ١٤٧ وولدت الخيزران ابنها الرشيد فى شهر المحرم التالى أرضعت كل منهما ابن صاحبتها ، فكانا أخوين فى الرضاع . ولا تكاد توافى السنة الثالثة من خلافة المهدى أى سنة ١٦١ حتى يتخذ يحيى مؤدباً لابنه الرشيد ، ويصبح منذ سنة ١٦٣ القيم على ديوان رسائله ، فكان يلزمه ويدبر شئونه ، حتى إذا توفى المهدى وخلفه الهادى وفكر فى تنحية الرشيد عن ولاية العهد عرف كيف يصرفه عن عزمه ، فعظمت منزلته عند صاحبه ، وتطورت الأمور سريعاً ، فتوفى الهادى وخلفه الرشيد لسنة ١٧٠ فاتخذ يحيى وزيراً له ، وأطلق يده فى جميع شئون الدولة وسلّمه خاتم الخلافة ، فأصبح كأنه الحاكم الحقيقى ، وقد أقام ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى بلاد الترك وأقام ابنه جعفراً على المغرب كله من الأنبار إلى أقاصى إفريقية .

وكان يحيى عاقلا حصيفاً يحسن السياسة وتدبير الحكم والنهوض بشئون الثقافة ، فمضى كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع يصبغ نظم الدولة السياسية والإدارية بالصبغة الساسانية كما مضى يعنى بشئون الطب والترجمة ، فأنشأ المارستان واستدعى له غير طبيب من الهنود وغيرهم ، وشجع على الترجمة لكنوز الثقافات الهندية واليونانية والفارسية ، وبعث نهضة فكرية واسعة . وفتح أبوابه للشعراء والمغنين وأسبغ عليهم هو وابناه الفضل وجعفر العطايا الجزيلة ، حتى لتُروَى فى ذلك روايات تشبه الأقاصيص ، وهى تدل على أنهم كانوا بحوراً فياضة وغيوثا منهلّة . جود سيال توارثوه عن أبيهم خالد ممدوح بشار ، وهو جود جعل صلاتهم لا تنقطع عن الشعراء ، فإذا كثيرون منهم ينقطعون لهم ، وإذا هم يشْركون الرشيد فى جميع شعرائه ، وقلما وجد شاعر لعصرهم فى بغداد إلا ودبّج فيهم بعض مدائحه ، ومرت بنا أطراف من ذلك عند سلم الخاسر ومروان بن أبى حفصة ومسلم بن الوليد ، وممن كان يختص بهم نُصَيْب الأصغر ، وله فى يحيى كلمة طارت أبياتها فى الآفاق من مثل قوله [1] :

عند الملوك مَضَرَّةٌ ومنافعٌ وأرى البرامك لا تضرُّ ، وتنفعُ

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/٣٤ والجهشيارى ص ٢٠٣ .

وكان ابن مناذر كثير المديح ليحيى ، وله فيه قصيدة كانت فاكهةَ أهل الأدب لجودة ألفاظها ومعانيها ، وفيها يقول مشيداً به وبابنيه الفضل وجعفر[١] :

أتانا بنو الأملاك من آل برمكٍ فياطيبَ أخبارٍ وياحُسْنَ منظرِ
لهم رحلةٌ فى كل عامٍ إلى العِدا وأُخرى إلى البيت العتيقِ المُسَتَّرِ
إذا نزلوا بَطْحاءَ مكة أشرقتْ بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ
فما خُلِقَتْ إلا لجودٍ أكفُّهم وأقدامُهم إلا لأعوادِ مِنْبَرِ
إذا رامَ يحيى الأمرَ ذلَّتْ صِعابُه وناهيك من داعٍ له ومدبِّرِ

وممن لهج بمديح يحيى وابنيه أبو قابوس الحيرى النصرانى ، وفى يحيى يقول مصوراً برَّه وجوده ووفاءه بوعوده وعهوده[٢] :

رأيت يحيى أتمَّ اللهُ نعمتَهُ عليه يأْتى الذى لم يأته أحَدُ
ينسى الذى كان من معروفه أبدًا إلى الرجال ولا ينسى الذى يَعِدُ

وكان الأصمعى يألف جعفر بن يحيى ويُخَصُّ به ، وله فيه مدائح كثيرة وتقريظ وتفضيل ، ومن طريف ما له فيه[٣] :

إذا قِيلَ : مَنْ للنَّدَى والعُلا مِنَ الناس قيل الفتى جعْفَرُ
ومـا إن مدحتُ فَتًى قبله ولكنْ بنو بَرْمكٍ جَوْهَرُ

وفيه تقول عنان جارية الناطفى[٤] :

بديهتهُ وفـكرتُهُ سواءٌ إذا التبست على الناس الأُمورُ

وكان أخوه الفضل أكثر منه جوداً وأندى راحة ، فتكاثر الشعراء على بابه ، وتكاثرت مدائحهم فيه ، وصوَّر ذلك بعض الشعراء فقال[٥] :

ما لقينا من جود فَضْل بن يحيى ترك الناسَ كلَّهم شعراء

---

(١) ابن المعتز ص ١٢٥ .
(٢) الجهشيارى ص ١٧٩ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٠٦ .
(٤) الجهشيارى ص ٢٠٤
(٥) الجهشيارى ص ١٩٥ .

علَّم المُفْحَمِين أن ينظموا الأشْعارَ منَّا والباخلين السَّخَاءَ

ومن أكثر من مديحه نُصَيْب الأصغر وفيه يقول واصفاً جوده الغَدِق(١):

جادَ الربيعُ الذى كُنَّا نؤمِّلُهُ فكلُّنا بربيع الفضل مُرْتَبِعُ

وفيه يقول سعيد بن وهب(٢):

مَدَحَ الفضلُ نَفسه بالفعالِ فعَــلا عن مديحنا بالمقالِ

ويقول إسحق الموصلى من أبيات فيه عمل فيها لحناً وغنَّاه بها، فطرب طرباً شديداً(٣):

لو كان بينى وبين الفضل معرفةٌ فضل بن يحيى لأعدانى على الزَّمَنِ

هُو الفتى الماجدُ الميمونُ طائرهُ والمشترى الحمدَ بالغالى من الثمن

وكان أخوه جعفر يجفو أبا نواس فصبَّ عليه شواظا من هجائه، أما هو فأدناه منه وعظم نائله إليه، مما جعله يلهج بالثناء عليه، وفيه يقول(٤):

أَوْحَدَهُ اللهُ فما مِثْلُهُ لطالِبٍ ذاك ولا ناشدِ

ليس على الله بمستنكَرٍ أن يجمع العالَم فى واحد

وممن كان ينقطع إليه أبو النَّضير أحد الشعراء المغنين، وفيه وفى آله يقول(٥):

إذا كنتَ من بغداد منقطع النَّدَى وجدتَ نسيمَ الجود من آل بَرْمَكِ

وما زال الشعراء يتناشدون مدائح الفضل وأخيه وأبيه منذ أسلم الرشيد يحيى مقاليد الخلافة فى سنة ١٧٠ حتى أول صفر سنة ١٨٧ إذ نكبهم الرشيد نكبته المشهورة آمراً بقتل جعفر وصلب أجزاء جسده وحَبْس أبيه وأخيه، وظلا فى الحبس إلى أن ماتا، أما يحيى فمات فى سنة ١٩٠ ومات الفضل فى سنة ١٩٢. وكان طبيعيًّا أن يبكيهم الشعراء وأن يذرفوا عليهم الدموع مدراراً، لما أغدقوا عليهم من النعم والصلات السنية، ومن طرائف مراثيهم قول منصور النمرى(٦):

---

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/٣١.
(٢) أغانى (ساسى) ٢١/٧١.
(٣) الجهشيارى ص ١٩١.
(٤) الحيوان للجاحظ ٣/٦٣.
(٥) أغانى (طبع دار الكتب) ١١/٢٨٦.
(٦) مروج الذهب للمسعودى ٣/٤٩٦.

obeikandi.com

أيدى بنى برمكٍ لدينا تبكى عليهم بكلِّ وادِ
كانتْ بهم بُرْهةً عروسا فأَضحتِ الأَرض فى حِدادِ

وكان الفضل بن عبد الصمد الرَّقاشى منقطعاً إليهم ، وطالما نوَّهوا باسمه وأجزلوا فى عطائه ، فلما صُلب جسد جعفر على الجسر اجتاز به وهو على الجِذْع فوقف يبكى أحرَّ بكاء ، ثم أنشأ يقول[1] :

أَما واللهِ لولا خوفُ واشٍ وعَيْنٌ للخليفة لا تنامُ
لطُفْنا حول جِذْعك واستلمنا كما للناسِ بالحَجَرِ استلام
وما أبصرتُ قبلك يابن يحيى حُساماً حَتْفه السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعاً ودولة آل برمكٍ السلام

وأخذ يتحسر عليهم ويتفجع فى مراث كثيرة ، ونحن نقف قليلا عند شاعرين من أهم شعرائهما : أبان بن عبد الحميد اللاحقى وأشجع بن عمرو السُّلَمِىّ .

أبان[2] بن عبد الحميد[3] اللاحقى

من موالى البصرة ، وبها منشؤه ومرباه ، وقد تفتحت شاعريته مبكرة وأخذ يتجه بها نحو الهجاء ، وسرعان ما اصطدم بالمعذَّل بن غَيْلان ، واستطار بينهما الشَّرُّ ، ونرى المعذَّل فى هجائه يتهمه بأنه مانوى[4] زنديق ، وهى تهمة ظلت عالقة به ، مما يدلّ على أن لها أساساً فى حياته ، وسنرى الجاحظ لا ينفيها عنه ، بل يثبتها متعجباً ، ويظهر أنه كان يضم إلى هذه الزندقة شيئاً من العكوف على اللهو والمجون شأن أخدانه من الشعراء . وممن هجاهم أيضًا فى باكورة حياته بعض

(١) أغانى (ساسى) ١٥/٣٤ وانظر له مرثية أخرى فى غرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) ص ٤٠٧ .
(٢) انظر فى ترجمة أبان وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٧٣ والأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) طبع مطبعة الصاوى ص ١ — ٥٢ وابن المعتز ص ٢٠٢ وما بعدها وص ٢٤١ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢١٨ والحيوان للجاحظ ٤/٤٤٧ وما بعدها وتاريخ بغداد ٧/٤٤ والنجوم الزاهرة ٢/١٦٧
(٣) فى الفهرست لابن النديم : حميد . انظر ص ١٦٣ .
(٤) الصولى ص ٧ .

قضاة البصرة ، ومن طريف ما يُرْوَى من هجائه أنه كان فى جواره بالبصرة رجل من ثقيف يقال له محمد بن خالد كان شديد العداوة له ، فتزوج ثقفية يقال لها عَمَّارة بنت عبد الرحمن ، كانت موفورة الثراء ، فقال أبان يهجوها ويحذرها منه :

لما رأيتُ البَزَّ والشَّارَهْ ... والفَرْشَ قد ضاقتْ به الحارَهْ
واللَّوْزَ والسُّكَّر يُرْمَى بهِ ... من فوق ذى الدار وذى الداره
وأحضروا المُلْهِين لم يتركوا ... طَبْلاً ولا صاحبَ زمَّارَه
قلت لماذا ؟ قيل أعجوبةٌ ... محمدٌ زُوِّجَ عَمَّارَه
لا عمرَّ الله بها بيته ... ولا رأتْه مدركاً ثاره
ماذا رأتْ فيه ؟ وماذا رجت ؟ ... وهْى من النسوان مختاره
أَسْوَدُ كالسَّفُّود يُنْسَى لدى الدَّ ... نُّور بل مِحْراكُ قَيَّارَه
يُجْرِى على أولاده خمسةً ... أَرْغفةً كالرِّيش طيَّارَه
وأهله ــ فى الأرض من خوفه ... إن أفرطوا فى الأكل ــ سيَّاره

وما كادت عمارة تسمع هذا الهجاء حتى فَرَّت على وجهها ، وهو هجاء يدل على ما وراءه من ظرف . ولا يكاد يُظلّ الناس عصر الرشيد والبرامكة الأجواد حتى نراه يهاجر من موطنه إلى بغداد ، متجهاً تَوًّا إلى الفضل[1] بن يحيى ، ومديحاً فيه قصيدة طويلة صوَّر فيها نفسه مثالا للنديم وأوصافه التى كانت تُشْتَرَطُ لهذا العصر فى الندماء ، يقول :

أنا من بغْية الأمير وكنزٌ ... من كنوز الأمير ذو أرباحِ
كاتبٌ حاسبٌ أديبٌ خطيبٌ ... ناصحٌ راجحٌ على النُّصَّاحِ
شاعرٌ مفلقٌ أخفُّ من الري ... شةِ مما تكون تحت الجناحِ
وظريفُ الحديث من كلِّ فَنٍّ ... وبصيرٌ بترَّهات المــلاحِ
كم وكم قد خَبَأْتُ عندى حديثًا ... هُوَ عند الملوك كالتُّفَّاح

(١) فى بعض الروايات أنه اتجه إلى جعفر .

ومضى فى القصيدة يصف أخذه من كل علم بطرف وبصره بالصيد وشئونه وأنه ليس قصيراً ولا مفرط الطول ، مع صباحة الوجه ولطافة المزاج . فوصله الفضل وخفَّ على نفسه ونفس أبيه يحيى وأخيه جعفر ، وقرب من قلوبهم جميعاً حتى صار صاحبهم وحظيَّهم . وقد نوَّه بالفضل طويلاً حين قضى على ثورة يحيى ابن عبد الله العلوى بالديلم لسنة ١٧٥ للهجرة وجاء به إلى بغداد ، وكان قد طلب الصلح حقناً للدماء ، وفى ذلك يقول أبان مخاطباً الرشيد :

هنيئا أميرَ المؤمنين لك الظَّفَرْ فقد تَمَّتِ النُّعْمَى وقد ساعد القَدَرْ
أتاك بيحيى الفضلُ سلمًا يقوده مُقِرًّا ولولا يُمْنُ جَدِّك ما أَقَرّْ

ويظهر أنه كان يتشيع للعلويين تشيعاً يستره ولا يظهره ، ففى أخباره أنه عتب على البرامكة أنهم لا يصلونه بالرشيد ، ذاكراً لهم أمنيته فى أن يحظى من جوائزه السنية ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ، فقالوا له إنه إنما يحظى بتلك الجوائز لدفاعه عن حق البيت العباسى فى الخلافة ورده على العلويين رداً عنيفاً ، فاسلُكْ طريقه إن شئت ، فقال : لا أستحلُّ ذلك . ثم حَلِيت فى عينه صلات الرشيد ، فراجع نفسه ونظم فيه ملحة طويلة يقول فى تضاعيفها :

نشدتُ بحقِّ الله مَنْ كان مسلمًا أَعُمٌّ بما قد قلتُه العُجْمَ والعَرَبْ
أَعَمٌّ رسول الله أقربُ زُلْفَةً لديه أم ابنُ العَمِّ فى رتبة النَّسَبْ
وأيهما أولى به وبعهدِهِ ومن ذا له حَقُّ التراث بما وجب؟
فإن كان عباسٌ أحقَّ بتلكمُ وكان علىٌّ بعد ذاك على سَبَبْ
فأبناء عباسٍ همُ يرثونه كما العَمُّ لابن العَمِّ فى الإرث قد حَجَبْ

ولم يكد يفرغ من إنشاد القصيدة بين يدى الرشيد حتى أمر له بعشرين ألف درهم واتصل مَدْحه به . وبلغ من عظم قدره عند يحى بن خالد أن قلَّده ديوان الشعر فكان الشعراء يرفعون إليه أشعاره فى البرامكة ، فيسقط منها ما يرى إسقاطه ويعرض ما يرى أنه خليق بالعرض ، مميزاً بينهم مقدراً لكل منهم المكافأة التى يستحقها جزاء إحسانه . وحدث أن تقدم إليه أبو نواس بقصيدة مع طائفة

من الشعراء، فأمر له بدرهم ناقص ، وفى روايةأنه أسقط قصيدته ، فاغتاظ غيظاً شديداً ، وهجاه وتبادلا الهجاء طويلا . ويُقال إن الهجاء بينهما إنما اندلعت ناره لأن يحيى بن خالد كان قد تقدَّم إلى أبى نواس بنظم كليلة ودمنة فزيَّن له أبان أن يستعفى يحيى من النهوض بهذا العمل المضنى ، ثم حبس نفسه فى بيته لا يخرج منه حتى فرغ من نقلها إلى الشعر فى أربعة أشهر بالغا بها أربعة[1] عشر ألف بيت . وحمل نقله إلى يحيى بن خالد ، فأعطاه عليه مائة ألف درهم ، وفى رواية أنه أعطاه عليه عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف . فحزن أبو نواس ووجد عليه وجداً شديداً ، وأخذ يقتصُّ منه بهجاء مرير ، وردَّ عليه أبان ، فاشتعلت بينهما معركة هجاء عنيفة ، كان أبو نواس دائمًا هو الذى يكثر فيها من السهام المسمومة .

وقد أتاه كثيراً من ثغرة زندقته ، وروى له الجاحظ فى حيوانه هجائية من هذا اللون ، وهو يتهمه فيها بأنه مانوى وأنه يتشبه بمطيع بن إياس ووالبة وحماد عجرد وغيرهم من المجان ، ولا ينفى الجاحظ تهمة الزندقة عن أبان غير أنه ينفى أن يوضع مع مطيع وأمثاله فى كفة واحدة ، يقول : « ولقد كان أبان وهو سكران أصحَّ عقلا من هؤلاء وهم صحاة » . ويقول ابن المعتز موازناً بينه وبين أبى نواس : «كان فى جميع أحواله أرفع طبقة من أبى نواس ، وقد هجاه أبو نواس بشعر كثير فما سار له فيه شىء على شهرة شعره ، ولم يقل فى أبى نواس غير ثلاثة أبيات ، وقد سارت فى الدنيا ، وهى هذه :

أبو نواس بن هانى ... وأُمُّه جُلُّبانِ[2]
والناسُ أفطنُ شىء ... إلى حروف المعانى
إن زدت بيتا على ذى ... ما عشتُ فاقطعْ لسانى

وهى أبيات لاذعة . ويروى الرواة أنه كان له جار يعاديه ، فاعتلَّ علة طويلة ، وأرجف أبان بموته ، ثم صحَّ من علته ، وخرج فجلس على بابه ، وإذا أبان ينشده أهجية ، فلم يلبث أن أُرْعِدَ منها واضطرب ، ودخل منزله فما خرج منه حتى

---

(١) فى ابن المعتز : أن أبانا إنما بلغ بها خمسة آلاف بيت .

(٢) الجلبان : شجرة الورد ، وهو اسم أم أبى نواس ، وكأن أبانا يتخذ من ذلك مغمزاً له .

مات . وكان يحسن الرثاء ، ومرثيته التى رواها الصولى فى سوار بن عبد الله قاضى البصرة من أجود المراثى ، وهى طويلة طولا مسرفاً .

وأهم ما نهض به أبان فى الشعر نظمه لكليلة ودمنة ، وقد نظم بجانبها — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — أرجوزة مزدوجة فى الصوم والزكاة ومزدوجات أخرى فى التاريخ الفارسى وقصيدة فى نشأة الخلق وعلم المنطق . وبذلك مكَّن لشيوع الشعر التعليمى فى العربية ، ونكتفى هنا بقطعة من هذا الشعر افتتح بها باب الأسد والثور فى كليلة ودمنة ، وهى تمضى على هذه الشاكلة :

وإن من كان دَنِئَ النَّفْسِ ... يَرْضَى من الأَرفع بالأَخَسِّ
كمثل الكلب الشقِّ البائس ... يَفْرَحُ بالعظم العتيق اليابسِ
وإن أهل الفضل لايرضيهمُ ... شىء إذا ما كان لا يَعْنيهمُ
كالأَسد الذى يصيد الأَرْنَبا ... ثم يرى العَيْرَ المجدَّ هَرَبَا[1]
فيُرْسِلُ الأَرْنَبَ من أَظفارهِ ... ويتبع العَيْرَ على أدبارهِ

وتطَّرد أرجوزته فى كليلة ودمنة وفى كثير من الموضوعات التعليمية التى عُنى بالنظم فيها على هذا النمط المزدوج الذى اصطفى له لغة جزلة متينة طالما راعت معاصريه ومَنْ تلاهم ، حتى ليقول ابن المعتز فى التعريف به : « كان شاعراً أديباً ، عالمًا ظريفاً ، مِنْطيقاً ، مطبوعاً على الشعر مقتدراً عليه . . وهو الذى نقل كليلة ودمنة شعرا بتلك الألفاظ الحسنة العجيبة . . ولم يقدر أحد من الناس أن يتعلق عليه بخطأ فى نقله ، ولا أن يقول : ترك من لفظ الكتاب أو معناه » . وترجم الصولى لأخيه عبد الله وابنه حمدان وحفيده أبان . ونظن ظنًّا أنه ظل مشغولا بعد البرامكة بشعره التعليمى ، حتى توفى سنة ٢٠٠ للهجرة ، فإنه لم يُؤْثَرْ له شعر فى مديح الأمين ولا فى مديح المأمون وقواده ووزرائه .

---

(١) العير : حمار الوحش .

أشجع [١] بن عمرو السُّلمى

من بنى الشريد السُّلَميِّين ، كان أبوه ينزل البصرة ، وتعلق بامرأة من أهل اليمامة ، فشخص معها إلى موطنها وتزوجها ، فولدت له بموطنها أشجع حيث قضى السنوات الأولى من حياته . ومات أبوه فقدمت به أمه إلى البصرة تطلب ميراث أبيه ، وكانت قد رُزقت منه أيضًا ولديها أحمد وحُرَيْثاً . وأكمل أشجع نشأته ومَرْباه بالبصرة ، وتفتحت مواهبه الشعرية فابتهجت به قبيلته وأخواتها من القبائل القيسية ، وكان الشعر يومئذ فى ربيعة واليمن ، ولم يكن لقيس شاعر معدود ، فلما نجم أشجع ولمع اسمه افتخرت به قيس ، وبادلها فخراً بفخر من مثل قوله :

إذا افتخرتْ قيسٌ بطيبِ العناصِر ... على الناس طاطا رَأسَه كلُّ فاخرِ

ولم يلبث أن شد رحاله إلى بغداد لأواخر عهد المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) فمدح ابنه جعفراً ، ويقال إن الذى وصله به عوف بن أحمد بن يزيد السُّلَمى ، وله فيه وفى أبيه أحمد وعمه محمد مدائح مختلفة . ولم يكد يبزغ عصر الرشيد حتى وصلته به زوجه زُبَيْدة بنت جعفر بعد وفاة أبيها ممدوحه ، فأسْنَى جوائزه ، ويقال : بل الذى وصله به جعفر بن يحيى البرمكى . وتؤكد بعض الروايات أن أول اتصاله به إنما كان فى الرَّقَّة حين انتقل اليها من بغداد سنة ١٨٠ لينفر منها سريعاً إلى حرب الروم حين يدعو الداعى ، ومن أجل ذلك استوطنها مدة . ونظن أن اتصاله بالرشيد يسبق هذا التاريخ ، فقد روى صاحب الأغانى عنه أنه قال : « دخلتُ على محمد الأمين حين أجلس مجلس الأدب للتعليم وهو ابن أربع سنين ، وكان مجلس فيه ساعة ثم يقوم ، فأنشدت :

مَلِكٌ أبوه وأمُّه من نَبْعَةٍ ... منها سراجُ الأمة الوَهَّاجُ [٢]

---

(١) انظر فى أشجع وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٢٥١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٥٧ والأغانى (طبعة الساسى) ١٧ / ٣٠ والأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) ص ٧٤ وتاريخ بغداد ٧ / ٤٥ والمرشح للمرزبانى ص ٢٩٥ ومروج الذهب للمسعودى ٣ / ٢٩٦ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢١٥ والمرزوقى على الحماسة ص ٨٥٦ .

(٢) النبعة : شجرة ضخمة تتخذ منها القسى والسهام ، والاستعارة واضحة .

شربتْ بمكة فى رُبَى بَطْحائها ماء النبوة ليس فيه مِزاجُ[1]

فأمرتْ له أمه زُبَيْدة بمائة ألف درهم ، ويقال إنه لم يتولَّ الخلافة أحد أبوه وأمه من بنى هاشم إلا على بن أبى طالب ومحمد الأمين » . ومعروف أن الأمين ولد سنة ١٧٠ ومعنى ذلك أن دخول أشجع عليه ومدحه كانا فى سنة ١٧٤ وفى ابن المعتز ما يدل على أن البيتين من قصيدة مدح بها الرشيد . وسنراه يكثر من مدحه فى حربه لنقفور ، وقد مضى يوثق عهده للمأمون بولايته العهد بعد أخيه الأمين توثيقاً شديداً بقوله :

بيعةُ المأمونِ آخذةٌ بعِنان الحقِّ فى أُفقِهْ
لن يفكَّ المرء رِبْقَتَها أو يفك الدين من عُنقه
وله من وجــه والدهِ صورةٌ تَمت ومن خلقه

وكتب الرشيد لولديه كتاباً بهذا العهد ، وعلَّقه فى سقف الكعبة سنة ١٨٢ فانبرى أشجع يصوب رأيه ويؤكِّده فى قصيدة طَرب لها الرشيد .

على أن صلته به إنما كانت فى ثنايا صلة وثيقة بجعفر بن يحيى البرمكى وأبيه وأخيه ، حتى لكأنما اقتطعوه منه ، ويقال إن أنَس بن أبى شيخ كاتب جعفر هو الذى وصله به ، ثم انعقدت صلته بأخيه الفضل وأبيه يحيى وكان أول ما أنشده :

ذهبتْ مكارمُ جعفرٍ وفَعاله فى الناس مثل مذاهب الشَّمْسِ
ملكٌ تسوس له المعالى نَفْسُه والعقلُ خيرُ سياسة النَّفْس

فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وكان جعفر حينئذ بمجلس فى أحد قصورهم بحى الصالحية ، فقال له صف موضعنا ، فأنشد على البديهة :

قصورُ الصالحيَّة كالعَذَارى لَبِسْنَ ثيابهن ليوم عُرْسِ
مطلاَّتٌ على روضٍ كستْه أيادى الماء وشياً نَسْجَ غَرْسِ
إذا ما الطَّلُّ أثَّر فى ثَراه تنفَّس نَوْرُهُ من غير نفسِ[2]

(١) بطحاء مكة : واديها بين الربى والجبال . وكانت تنزله فى الجاهلية عشائرها الشريفة .

(٢) الطل : الندى والمطر الخفيف .

فتَغْبقه السماءُ بصِبْغ وَرْسٍ وتَصْبحه بأكؤس عَيْن شمسِ[1]

وأعجب جعفر بحسن بديهته . وأصبح شاعره وشاعر أسرته يمدحه ويمدح أباه يحيى وأخاه الفضل، ويغدقون جميعًا عليه العطايا الجزيلة ، ومن قوله فى يحيى :

كفانى صروفَ الدهر يحيى بن خالدٍ فأصبحتُ لا أرتاع للحدثانِ
كفانى ـ كفاه الله كلَّ مُلِمَّةٍ ـ طِلابَ فلانٍ مرَّة وفلانِ
فأصبحتُ فى رَغْدٍ من العيش واسعٍ أقلِّب فيه ناظرى ولسانى

ونراه يرافق جعفراً حين هاجت العصبية بين النزارية واليمنية فى الشام لسنة ١٨٠ وقد ظفر بجماعة ممن سعوا بالفساد وشرَّد آخرين وأصلح ذات البين بين الفئتين المتناحرتين . وأكثر من مديحه حينئذ ، ويقال إنه كان يُجْرى عليه فى كل يوم جمعة مائة دينار وأشجع يجرى عليه أشعاره من مثل قوله :

أصلحتَ أمر الشام محتسبًا ورتقت ما فيها من الفَتْقِ
ما كان يُدْرَكُ بالقتال ولا بالمال ما أدركت بالرِّفْقِ

وعزم الرشيد فى نفس السنة على تولية جعفر خراسان وسجستان وأخرج له الأمر بذلك ، فابتهج وابتهج معه شاعره ، ولم يلبث أن دبَّج فيه إحدى روائعه وفيها يقول :

يريد الملوك مدى جعفرٍ ولا يصنعون كما يصنعُ
وليس بأوسعهم فى الغنى ولكنَّ معروفَه أوسع
وكيف ينالون غاياته وهم يجمعون ولا يجمع
بديهتُه مثلُ تدبيره متى رُمْتَهُ فهْو مستجمع

وبدا للرشيد فرجع فى أمره وعزيمته ، فأنشده شعراً طريفاً يسليه به ، زاعماً أن الرشيد رأى حاجته إليه أمسّ من حاجة أهل خراسان . ويكثر من مديح جعفر

(١) تغبقه : من الغبوق وهو شرب الخمر فى المساء ، والورس : زهر أصفر . تصبحه : من الصبوح وهو شرب الخمر فى الصباح .

ولا يلمُّ به مرض هو أو أبوه إلا ويكثر من دعائه لهما بالشفاء وفى يحيى يقول وقد أخذته علة :

إذا ما الموتُ أخطأه فلسنا نبالى الموتَ حيث غدا وراحا

ولما استأذن من الرشيد أن يجاور بمكة لسنة ١٨١ ظل يردد افتقاد بغاة الخير له وحزنهم لطول غيبته من مثل قوله :

قد غاب يحيى فما أرى أحدًا يَأْنَسُ إلا بذكره الحَسَنِ
أوحشتِ الأرض حين فارقها من الأيادى العظام والمِنَنِ
لولا رجاءُ الإياب لانصدعتْ قلوبنا بعده من الحَزَنِ

ويروى صاحب الأغانى أن جعفرا ولاه عملا ، فرفع إليه أهله شكايات كثيرة متظلمين منه ، فصرفه جعفر عنهم ، فلما رجع إليه من عمله مَثَل بين يديه وأنشده قصيدة طويلة يقول فيها :

لقد هزَّتْ سنانَ القول منى رجالُ وقيعةٍ لم يعرفونى
أطافوا بى لديك وغبْتُ عنهم ولو أدنيتنى لتجنَّبونى

فوصله جعفر وخلع عليه . وظل يتغنى بجعفر وبأبيه وأسرته حتى نكبهم الرشيد، فتحسر عليهم طويلاً ومن قوله فيهم :

كأنما أيامهم كلها كانتْ لأهل الأرض أعيادا

وجعلته صلته بالبرامكة يمدح كتَّابهم وأصحابهم من مثل إسماعيل بن صَبيح ، ومن جيد قوله فيه :

له نظرٌ لا يغْمض الأمرُ دونه تكاد ستورُ الغيب عنه تمزَّقُ

ولعله لم يكثر من مديح صاحب لهم كما أكثر من مديح محمد بن منصور ابن زياد . وقد مضى بعد نكبتهم يحاول القربى من الرشيد ، وأوصله له حاجبه ووزيره الفضل بن الربيع قائلاً له : « هو أشعر شعراء أهل الزمان وقد اقتطعته

عنك البرامكة فأمر بإيصاله مع الشعراء » وقد تغنى بانتصاراته على نقفور وجنوده وفتحه لهرقلة غناء حاراً ، من مثل قوله :

برقتْ سماؤك فى العدوِّ وأمطرتْ هَاماً لها ظِلُّ السيوف غَمامُ[1]
وعلا عدوَّك يا بن عمِّ محمد رَصَدان : ضوء الصبح والإظلامُ
فإذا تنبَّه رُعْتَهُ وإذا غَفا سَلَّتْ عليه سيوفَك الأحلام

ولما بلغ هذا البيت فى القصيدة اهتز الرشيد ، وأمر بأن ينثر عليه الدر إعجاباً واستحساناً ، وله يقول من قصيدة أخرى وقد جلس للشعراء عقب هذا الفتح فى يوم عيد :

لا زلتَ تنشر أعيادًا وتطويها تَمْضى بها لك أيَّامٌ وتُمْضيها
ولْيَهْنك الفتح والأيامُ مقبلة بالنصر والعزِّ معقودًا نواصيها
أمستْ هرقلة تهوى من جوانبها وناصرُ الله والإسلام يرميها

وكان الرشيد يكثر من حجه إلى البيت الحرام ومن جهاده العنيف للروم ، قاسماً سنيه بين حج وغزو ، فصور ذلك أشجع تصويراً بديعاً فى قصيدة استقبله بها فى يوم قدوم له من حج بإحدى السنوات ، وفيها يقول :

أَلِفَ الحجَّ والجهاد فمايَنْ فكُّ من سَفْرتين فى كل عامِ
سَفَرٌ للجهاد نحو عدوٍّ والمطايا لِسَفْرة الإحـرام[2]
طَلَبَ الله فهْو يسعى إليه بالمطايا وبالجياد السَّوَام
فيداه يَدٌ بمكة تدعو ه وأخرى فى دعوة الإسلام

وله مدائح مختلفة فى الفضل بن الربيع . وكان يجيد الرثاء كما كان يجيد المديح ، إذ كان يعرف كيف يمس القلوب وكيف يستثير الحزن فى الصدور ، على نحوما يلقانا فى رثائه لمحمد بن منصور بن زياد ، وفيه يقول :

---

(١) الهام : الرءوس .
(٢) جعل المطايا أى الإبل رمزاً للحج والجياد رمزاً للجهاد ، والسوام : من سامت الريح : إذا مرت واستمرت .

أَنْعَى فتى الجود إلى الجود ما مثلُ مَنْ أنعى بموجود
أَنْعَى فَتًى مصَّ الثرى بعده بقيَّةَ الماء من العـود

فالأرض يَبِسَتْ أشجارها بموته . ومن مراثيه الرائعة التى رواها أبو تمام فى حماسته مرثيته فيمن يسمى ابن سعيد وفيها يقول :

مضى ابنُ سعيدٍ حين لم يبق مَشْرقٌ ولا مغربٌ إلا له فيه مادحُ
وما كنت أدرى ما فواضلُ كفِّه على الناس حتى غَيَّبَتْه الصَّفائح (١)
فأصبح فى لَحْدٍ من الأرض مَيِّتاً وكانتْ به حَيًّا تضيق الصحاصِحُ (٢)
سأبكيك ما فاضتْ دموعى فإنْ تَغِضْ فحسبك منى ما تُجِنُّ الجوانح (٣)
وما أنا من رُزْءٍ وإن جَلَّ جازعٌ ولا بسرورٍ بعد موتك فارح
كأن لم يمتْ حَيٌّ سواك ولم تقم على أحدٍ إلا عليك النوائح
لئن حسنتْ فيك المراثى وذكرُها لقد حَسُنَتْ من قبل فيك المدائحُ

وغزله رقيق وله خمريات قليلة . وواضح مما أنشدناه له أنه كان غزير المعانى رشيق الأسلوب وأن قصائده الجياد تعد من عيون الشعر فى هذا العصر ودرره النفيسة ، وقد عاش حتى شهد قتل الأمين فى سنة ١٩٨ إذ روى له الصولى قصيدة فى مديح طاهر بن الحسين الذى حاصره إلى أن ظُفر به وقُتل صَبْراً ، وفى ذلك يقول مخاطباً له :

سلبتَ رِدَاءَ الملك ظالمَ نفسِه . وصنتَ الذى ولاَّك قَصْمَ الجبابرِ

وأكبر الظن أنه توفى بعد ذلك بقليل .

---

(١) الصفائح : الحجارة العراض فى سقف القبر .
(٢) الصحاصح : الأرض الواسعة المستوية .
(٣) تجن : تضمر . الجوانح : الضلوع .

٤

شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا يكاد يوجد فى هذا العصر وزير ولا وال ولا قائد إلا وقد مدحه الشعراء طلباً لجوائزه السنية ، ولن نستطيع أن نستقصى مدائحهم ، ولذلك سنكتفى بأكثرهم تداولا على ألسنة الشعراء ، ولعل أنبه وزير لعصر المنصور أكثر الشعراء من مديحه خالد بن برمك . وكان يعقوب بن داود وزير المهدى ومهجو بشار ممدّحا لكثير من الشعراء ، وقد وجدوا عليه وجداً شديداً حين حبسه المهدى ، وصوّروا ذلك فى أشعارهم من مثل قولى أبى حنش النُّمَيْرى[1] :

يعقوبُ لا تَبْعُدْ ، وجُنِّبْتَ الرَّدَى ... فلنبكينَّ زمانك الرَّطْبَ الثَّرَى

وقول أبى الشِّيص مخاطبًا المهدى[2] :

أَبلغْ إمام الهُدَى أن لستَ مصْطنعًا ... للنائبات كيعقوبَ بن داودِ
لو تبتغى مثله فى الناسِ كلِّهم ... طلبتَ ما ليس فى الدُّنْيا بموجود

واستوزر المهدى بعده الفيض بن أبى صالح ، وكان غيثاً مدراراً ، وممن كان ينقطع إليه أبو الأسد الحمّانى التميمى وفيه يقول[3] :

ولائمةٍ لامتك - يا فَيْضُ - فى النَّدَى ... فقلتُ لها لن يَقْدَحَ اللَّوْمُ فى البَحْر
أرادتْ لِتَنْهَى الفيضَ عن عادة النَّدَى ... ومن ذا الذى يَثْنى السحابَ عن القَطْرِ
مواقعُ جود الفَيْض فى كل بَلْدَةٍ ... مواقعُ ماء المُزْن فى البلد القَفْر
كأنَّ وفودَ الفيض لما تحمَّلوا ... إلى الفيض لاقَوْا عنده ليلةَ القَدْرِ

ومَرَّت بنا مدائح الشعراء فى البرامكة ، وكان الفضل بن الربيع يحجب الرشيد فى وزارتهم ، ثم خلفهم على وزارته ، ووزر من بعده للأمين ، وقد مدحه ونوّه

---

(١) المرزوقى على الحماسة ص ٩٤٦ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٦٣ .
(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤ / ١٣٤ .

به كثيرون وفى مقدمتهم أبو نواس وأبو العتاهية ، وفيه يقول(١) :

إذا ما كنت متخذًا خليلا فمثل الفَضل فاتَّخِذِ الخليلا
يرى الشكر القليل له عظيماً ويُعْطى من مواهبِه الجزيلا
أرانى حيثما يَمَّمتُ طرفى وجدتُ على مكارمه دليلا

ولإسحق الموصلى أشعار فيه لحَّنها وغنَّى فيها ، وممن يُسْلك فى مُدَّاحه أبو نخيلة ، وسلم الخاسر ، وأشجع السُّلَمى ، ومنصور النَّمَرِى ، وفيه يقول(٢) :

هو الأَوْحَدُ فى الفَضْل فما يُعْرَفُ ثانيهِ

ونلتقى بعده بالفضل والحسن ابنى سهل وزيرى المأمون ، وكانا جوادين ممدَّحين ، وقد نوَّه مسلم بن الوليد بالفضل طويلا ، وفيه يقول مشيراً إلى تدبيره الأمر للمأمون حتى أسقط الأمين(٣) :

أقمتَ خلافةً وأزلْتَ أخرى جليلٌ ما أقمتَ وما أزلتا

وقد عاش الحسن بعد الفضل طويلا ، فكثرت أمداح الشعراء فيه ، وفى مقدمتهم أبو تمام وأبو العَمَيْثَل وأبو فرعون الساسى ومحمد بن عبدالملك الزيات ومحمد بن وهيب ، وفيه يقول(٤) :

به تُجْتَدَى النعْمَى وتُسْتدرك المنى وتُسْتكمل الحسنى وتُرْعَى الأَواصِرُ
ولما رأى الله الخلافة قد وهتْ دعائمها والله بالأمر خابِرُ
بنى بك أركانًا عليها محيطةً فأنت لها دون الحوادث ساترُ

ولعل وزيراً بعده لم يُمْدَحْ كما مُدح محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق ، وللحسن بن وهب كاتبه فيه أشعار كثيرة ولعل شاعراً لم ينوّه به كما نوَّه أبو تمام .

وإذا تركنا الوزراء إلى الولاة وجدنا بينهم كثيرين من الأجواد الممدَّحين

---

(١) أغانى ٤/٦٧ .
(٢) أغانى ١٣/١٥٠ .
(٣) ديوان مسلم ص ٣٠٧ .
(٤) أغانى (ساسى) ١٧/١٤٤ .

وفى طليعتهم مَعْن بن زائدة الشيبانى والى اليمن للمنصور ثم سجستان ، وهو ممدوح مروان بن أبى حفصة كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، ومن مدَّاحه مطيع بن إياس والحسين بن مطير ، وله فيه حين توفى مرثية بديعة أنشدنا قطعة منها فى غير هذا الموضع . وطبيعى أن يكثر فى هذا العصر مديح ولاة البصرة والكوفة . ويتردَّد مديح الأولين فى ديوان بشار حتى وفاته ، كما يتردَّد الثانون فى أشعار الكوفيين ترددا أوسع من أن يُحْصَى ويستقصى . وكان فى كل ولاية شعراء من أهلها لا يزالون يمدحون ولاتها ، وكان كثير من شعراء العراق يفدون عليهم لأخذ جوائزهم ، ويكفى لتصوير ذلك أن نرجع إلى مصر فنرى بها شعراء من الطبقة الثانية لا يزالون يمدحون من يتولى عليها على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندى . وقد رحل إليها غير شاعر مقدِّمًا مدائحه لولاتها الذين اشتهروا بجودهم ، ظافراً منهم بالصلات السنية ، ومن ولاتها الأجواد لعهد المنصور يزيد بن حاتم بن قبيصة المهلبى ممدوح بشار وربيعة الرَّقِّى ؛ وقد قدم عليه فى ولايته ابن المولى ومدحه بقصائد كثيرة من مثل قوله :

يا واحدَ العربِ الذى أَضحْىَ وليس له نظيرُ
لو كان مثلَك آخَرٌ ما كان فى الدنيا فقيرُ

ويقال إنه أعطاه فى هذه القصيدة عشرين ألف دينار[1] . غير ما أعطاه فى قصائده الأخرى . وقد عرضنا فى حديثنا عن أبى نواس لرحلته إلى الخصيب صاحب خراجها وما أغدق عليه من برِّه ، كما عرضنا فى حديثنا عن أبى تمام لرحلته إلى عياش بن لهيعة الحضْرمى . وما كان من اتصاله بولاتها المختلفين ، وصوَّرنا من بعض الوجوه مدائحه لبعض ولاة دمشق والموصل وديار ربيعة وأذربيجان والثغور . ومرَّت بنا أيضًا مدائح دعبل للمطلب الخزاعى حين ولى مصر وكيف أشاد به أولاً ثم هجاه .

وليس من شك فى أن طاهر بن الحسين وابنه عبد الله هما أهم ولاة تغنَّى بهما الشعراء ، إذ جذبا إلى ولايتهما فى خراسان غير شاعر ، ومن مدَّاح طاهر الرقاشى وأبو العميثل والشاعر الملقب بالصينى ، على نحو ما يصوِّر لنا ذلك ابن المعتز ،

(١) أغانى (دار الكتب) ٣/٢٨٩ وما بعدها .

ويقول فى ترجمة عوف بن محلِّم الخزاعى : «كان معدوداً من الشعراء الظرفاء المحدِّثين وكان طاهر بن الحسين قد استخصَّه واختاره لمنادمته ، فكان لا يفارقه فى سفر ولا حَضَر . . ومما سار له فى الدنيا قوله له إذ وقف على الجسر فى حرَّاقة[1] يَنْحدر إلى دار الخليفة . فقال رافعًا صوته :

عجبت لحرَّاقة ابن الحُسَـ ـيْنِ كيف تسير ولا تَغْرَقُ
وبحران : من تحتها واحـدٌ وآخَرُ من فوقها مُطْبِقُ
وأعجب من ذاك عيدانُهـا وقد مسَّها كيف لا تُورِقُ

وكان ابنه عبد الله على مثاله جوداً وشجاعة وسماحة ، ويقال إنه لما ولاه المأمون مصر لسنة ٢١١ أعطاه مالها لعام : خراجَها وضياعها ، فوهبه كله وفرَّقه فى الناس ، وقد لهج الشعراء فيها بمديحه وفى مقدِّمتهم مُعَلَّى الطائى وله يقول[2] :

لو أصبح النِّيلُ يَجْرى ماؤه ذهباً لما أشرتَ إلى خَزْنٍ بمثقالِ
تَفُكُّ باليُسْر كفُّ العُسْرِ من زمنٍ إذا استطال على قومٍ بإقلالِ
وما بثثتَ رَعِيلَ الخَيْل فى بلدٍ إلا عَصَفْنَ بأرزاقٍ وآجالِ

وقد لزمه فى ولايته على خراسان كثير من الشعراء أمثال أبى العَمَيْثل وعوف بن محلم الخزاعى شاعرى أبيه ، وله يقول عوف من قصيدة طويلة[3] :

يا ابنَ الذى دان له المشرقانْ وأُلبِسَ الأَمنَ به المغربانْ

وهو ممدوح على بن جبلة وأبى تمام والبحترى ، وله يقول[4] :

ودُّك يكفينيك فى حاجتى ورؤْيتى كافيـةٌ عن سؤالْ
وكيف أخشى الفقر ما عشتَ لى وإنما كَفَّاك لى بيتُ مالْ

وعلى نحو ما مدح الشعراء الولاة ونوَّهوا بهم طويلا مدحوا القواد أمداحاً رائعة ، ومدائح بشار وأبى العتاهية فى عمر بن العلاء الذى قضى على المحمرة بجرجان لعهد المهدى

---

(١) الحراقة : ضرب من السفن .
(٢) أغانى (دار الكتب) ١٠٢/١٢ .
(٣) ابن المعتز ص ١٨٨ .
(٤) أغانى ١١٧/١٣ .

مشهورة . ولعل قائداً لم يُمْدَحْ فى عصر الرشيد كما مُدح يزيد بن مزيد الشيبانى ممدوح مسلم بن الوليد ، وفيه يقول منصور النمرىّ [١] :

لا تقربنَّ يزيدًا عند صَوْلتِهِ لكنْ إذا ما احْتَبَى للجود فاقترب

ومن مداحه على بن الخليل وعبد الله بن أيوب التيمى . ومن كبار القواد لعهد المأمون والمعتصم أبو دُلَف العِجْلى ، يقول أبو الفرج فى ترجمته له : « محله فى الشجاعة وعلوّ المحل عند الخلفاء وعظم الغَناء فى المشاهد وحسن الأدب وجودة الشعر محل ليس لكبير آخر من نظرائه [٢] » وكانت غيوث كرمه لا تزال تنهلُّ على الشعراء ، مما جعل ألسنتهم تلهج بمديحه ، وممن كان ينقطع إليه على بن جبلة وأبو الأسد الحِمَّانى التميمى وبكر بن النطاح ، وفيه يقول مصوّراً شجاعته [٣] :

قالوا وينظم فارسين بطعنةٍ يومَ اللقاء ولا يراه جليلا
لا تعجبوا لو أن طول قناتهِ ميلٌ إذن نظمَ الفوارسَ ميلا

وله يقول [٤] :

فكَفُّك قوسٌ والنَّدَى وَتَرٌ لها وسَهْمك فيه اليُسْر فارْمِ به عُسْرِى

ويقول أيضاً فيه :

ولقد طلبنا فى البلاد فلم نجدْ أحدًا سواك إلى المكارم يُنْسَبُ

وهو من مدّاح أبى تمام ومحمد بن وهيب وغيرهما . وقد جَلَّى فى حروب المأمون والمعتصم مع بابك والروم قواد كثيرون فى مقدمتهم الأفشين وخالد ابن يزيد بن مزيد وأبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى ولأبى تمام فيهم أمداح رائعة صوَّرنا أطرافًا منها فى ترجمته . ونحن نقف قليلا عند أربعة من شعراء هؤلاء القواد ومن سبقهم من الولاة والوزراء وهم : أبو الشيص وعبد الله بن أيوب التَّيْمى وعلى ابن جبلة والخُرَيْمى .

---

(١) أغانى ١٣/١٥٥ .
(٢) أغانى ٨/٢٤٨ .
(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٥٥ .
(٤) ابن المعتز ص ٢١٩ .

أبو الشِّيص[١]

غلبَ عليه لقبه أبو الشِّيص واسمه محمد بن عبد الله بن رَزين وهو ابن عم دِعْبل ، ويقول أبو الفرج « كان متوسط المحل فى شعراء عصره غير نابه الذكر لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبى نواس ، فخمل وانقطع إلى عقبة بن جعفر ابن الأشعث الخزاعى أمير الرَّقَّة فمدحه بأكثر شعره ، فقلما يُرْوَى له فى غيره ، وكان عقبة جواداً فأغناه عن سواه » . ومن مختار شعره فيه قوله مستطرداً من وصف الإبل إلى مديحه :

إن الأَمانَ من الزمان ورَيْبِهِ ... يا عُقْبَ شَطَّا بَحْرك الفَيَّاضِ
بَحْرٌ يلوذ المعتفون بِنَيْلِهِ ... فَعْم الجداول مُتْرَع الأَحواض[٢]
ثَبْت المقام إذا التوى بعدوِّه ... لم يَخْشَ من زَلَلٍ ولا إدْحاضِ[٣]
غَيْثٌ توشحتِ الرياضُ عِهادَهُ ... لَيْثٌ يطوف بغابةٍ وغِياضِ[٤]
ومشمِّرٌ للموت ذَيْلَ قميصِهِ ... قانى القناة إلى الرَّدَى خَوَّاض

ويقول ابن المعتز إنه مدح الرشيد مدائح كثيرة ، ولما مات أكثر من رثائه ومَدْح الأمين وله فى ذلك بدائع كثيرة من مثل قوله :

جَرَتْ جوارٍ بالسَّعْد والنَّحْس ... فنحن فى وَحْشَةٍ وفى أُنْسِ
العينُ تبكى والسِّنُّ ضاحكةٌ ... فنحن فى مأْتمٍ وفى عُرْسِ
يضحكنا القائم الأَمين وتُبْ ... كينا وفاةُ الإمام بالأَمسِ
بدران : بدرٌ أَضْحَى ببغداد فى الْ ... خُلْدِ وبَدْرٌ بطوسَ فى الرَّمْسِ[٥]

---

(١) انظر فى أبى الشيص وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٧٢ وابن قتيبة ص ٨٢٠ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/٤٠٠ ونكت الهميان للصفدى ص ٢٦٧ وتاريخ بغداد ٥/٤٠١ وفوات الوفيات ٢/٢٢٥ .
(٢) فعم : مملوء .
(٣) إدحاض : انزلاق .
(٤) العهاد : أول مطر الربيع . غياض : جمع غيضة وهى الشجر الملتف .
(٥) الخلد : قصر بناه المنصور ببغداد . الرمس : القبر .

وله فيه مرثية طويلة عجيبة يقول فيها مستغلا وفاته بطوس فى المشرق :

غَرُبَتْ فى المشرق الشمـ سُ فقُلْ للعَيْن تَدْمَعْ
ما رأينا قطُّ شمسًا غربتْ من حيث تَطْلُعْ

ومن رائع مراثيه قوله يبكى بعض الأبطال وقد سقط صريعًا فى ميدان القتال مصوراً بأسه وشجاعته :

ختلتْه المنون بعد اختيالٍ بين صَفَّين من قَنًا ونِصالِ
فى رداءٍ من الصفيح صقيلٍ وقميصٍ من الحديد مُذَالِ[1]

وهو أحد من برعوا فى الغزل ووصف الخمر ، وله فيهما أشعار كثيرة طارت فى الدنيا وسارت بها الركبان من مثل قوله فى الغزل :

مهاةٌ ترتمى الألبـا بَ عن قوسٍ من السِّحْرِ
لها طَرْفٌ يشوب الخَمْرَ للنَّدْمان بالخَمْرِ
عفيفُ اللَّحْظِ والإغضا ء فى الصَّحْوِ وفى السُّكْرِ

وقوله فى الخمر :

وعذراءَ لم تفترعها السُّقَاةُ ولا استامها الشَّرْبُ فى بَيْتحانى[2]
ولم تزلِ الشمسُ مشغولةً بصَنْعتها فى بطون الدِّنانِ
ترشِّحها لأثام الرِّجال إلى أن تصدَّى لها الساقيانِ
عجوزٍ غَذَا المِسْكُ أصداغها مضمَّخة الجلْدِ بالزَّعْفَرَانِ
يطوف علينا بها أحْوَرٌ يداه من الكأْس مخضوبتانِ

وله فى المشيب وبكاء الشباب كثير من الأشعار الرائعة التى يُطْرف فيها تارة بالصور والأخيلة البديعة ، وتارة بالمعانى التى تمس المشاعر والقلوب من مثل قوله :

---

(١) مذال : طويل الذيل .
(٢) استامها : ساوم على شرائها .

أبدى الزمانُ به نُدوبَ عِضاضِ ورمى سوادَ قرونه ببياضِ[1]

وقوله :

خلع الصِّبا عن منكبيه مشيبُ وطوى الذوائبَ رأسُه المخضوبُ
نَشَر البِلى فى عارضيه عَقَارِباً بِيضاً لهنَّ على القرون دَبيب

وقوله يذكر الشباب :

فهل لك يا عيشُ من رجعةٍ بأيامك المونقات الحِسانِ
وهيهات يا عيش من رجعةٍ بأغصانك المائلات الدَّوانى
لقد صدع الشيبُ ما بيننا وبينك صَدْعَ الرِّداءِ اليَمانى

وعَمِيَ بأخرة من حياته ، فحزن حزنًا عميقًا ، ومضى يرثى عينيه ويبكيهما بأبيات مؤثرة ، تصور التياعه التياعًا شديداً من مثل قوله :

يا نفسُ بكِّى بأدمعٍ هُتُنِ وواكفٍ كالجُمان فى سَنَنِ[2]
على دليلى وقائدى ويدى ونور وجهى وسائِس البَدنِ
أبكى عليها بها مخافةَ أنْ تَقْرنَنى والظلامَ فى قَرَنِ

ولعل فى ذلك كله ما يصور براعته فى الشعر وكيف كان يحسن نسيجه نافذاً إلى كثير من دقائق المعانى ورائع الصور والأخيلة . ويقال إن بعض الغلمان قتله وهو ثمل بالخمر سنة ١٩٦ للهجرة .

عبد الله[3] بن أيوب التيمى

كان يُكْنَى أبا محمد وهو من موالى بنى تَيْم ومن أهل الكوفة ، وقد تركها إلى بغداد طلبًا لجوائز الخلفاء والوزراء والقواد ، وبها انعقدت صلة وثيقة بينه وبين

---

(١) الندوب : الكلوم والجراح .
(٢) هتن : غزيرة . واكف : سائل لاينقطع.
(٣) انظـر فى عبد الله بن أيوب وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ١١٥/١٨ وانظر ٣١/١٧ و ٤٥ والحيوان ٥٠٥/٦ والنجوم الزاهرة ١٨٩/٢ .

إبراهيم الموصلى وابنه إسحق ، ثم اتصل بالرشيد والبرامكة ومدحهم جميعًا ونال جوائزهم ، ويقال إنه أخذ من يحيى البرمكى وبنيه مائة ألف درهم ، وقد جلَّى فى حادثة مشهورة ، ذلك أن الرشيد هزم نقفور صاحب بيزنطة هزيمة ساحقة جعلته يركع على قدميه ويؤدى له الجزية التى افترضها صاغرًا . ورجع الرشيد إلى الرقة ، فلما سقط الثلج وأمن نقفور أن يُغْزَى نقض الصلح المعقود ، وحار وزراء الرشيد كيف يخبرونه ، ثم رأوا أن يخبره بذلك بعض الشعراء ، وسرعان ما دبَّج التيمى قصيدة حماسية رائعة ضمَّنها الخبر ، ودخل على الرشيد فأنشدها بين يديه قائلاً :

نَقَضَ الذى أعطاكه نَقْفُورُ ... فعليه دائرةُ البَوَارِ تَدورُ

أَبْشِرْ أمير المؤمنين فإنَّه ... فَتْحٌ أتاك به الإلهُ كَبِيرُ

نقفورُ ! إنك حين تَغْدر أن نأَى ... عنك الإمامُ لجاهلٌ مغرورُ

أظننت حين غدرتَ أنك مفلتٌ ... هَبِلَتْك أُمُّك ما ظننت غرورُ

أبقاك حَيْنُك فى زواخر بحرهِ ... فَطمَتْ عليك من الإمام بحورُ[1]

واهتز الرشيد طربا بشعره ونَثَرَ عليه الدُّرَّ . وزحف بجيوشه حتى أناخ على هرقلة ، فافتتحها عنوة ، وذلَّ نقفور وذلَّت الروم .

ويقول صاحب الأغانى إن التيمى اتصل بيزيد بن مزيد ، فلم يزل منقطعا إليه حتى مات ، وليس بين أيدينا ما يصوِّر مدائحه له ، وقد بكى فيه بطولته وذياده عن حياض الدولة وفتكه بأعدائها فتكًا ذريعًا حين اختطفه الموت ، وفى ذلك يقول من مرثية رائعة تعد من أجود مراثى العصر :

أحقٌّ أنه أَوْدَى يزيـــدُ ... تبيَّنْ أيهـــا الناعى المشيدُ[2]

أتدرى مَنْ نعيتَ وكيف فاهتْ ... به شفتاك؟! كان بك الصَّعِيد[3]

أحامى المجد والإسلام أَوْدَى ... فما للأَرض ويحك لا تَميد[4]

تأَمَّلْ هل ترى الإسلامَ مالتْ ... دعائمُـــه وهل شاب الوليدُ

---

(١) الحين : الموت والهلاك .
(٢) أودى : مات .
(٣) الصعيد هنا : القبر .
(٤) تميد : تتحرّك وتهتز .

وهل شِيمَتْ سيوفُ بنى نِزارٍ   وهل وُضِعتْ عن الخيل اللُّبودُ(١)
وهل تَسْقِى البلادَ عِشارُ مُزْنٍ   بِدِرَّتِها وهل يَخْضَرُّ عود(٢)
أبَعْدَ يزيد تختزن البواكى   دموعا أو تُصان لها خُدودُ
ومن عجبٍ قَصَدْنَ له المنايا   على عَمْدٍ وهنَّ له جنود
لقد عَزَّى ربيعةَ أنَّ يومًا   عليها مثل يومك لا يعود

ويقال إن الرشيد كان حين يسمع هذه المرثية فى قائده يبكى بدموع غزار حتى لو كان بين يديه كأس لملأه بدموعه .

ونرى التيمى بعد عصر الرشيد يصل حباله بالأمين ويلجِّج معه فى نقضه لعهد أخيه المأمون ، وله فى ذلك قصيدة يقال إن الأمين أعطاه عليها مائة ألف درهم . ولما تطورت الحوادث وانتصر المأمون على أخيه أخذ ينقض ما صاغه فى الأمين بمثل قولــه :

نُصِرَ المأمون عبد اللّـ   ـهِ لمـا ظلموهُ
نقضوا العهد الذى كا   نوا قـديماً أكَّدوه
لم يعامله أخــوهُ   بالذى أوصى أبوه

وعفا عنه المأمون ووصله ، واتصل بقواده ووزرائه من مثل طاهر بن الحسين والفضل بن سهل ، وفيه يقول(٣) :

لعَمْرُك ما الأشرافُ فى كل بلدةٍ   وإن عظموا إلا لفَضْلٍ صَنائعُ
تَرى عظماءَ الناس للفضل خُشَّعًا   إذا ما دَنا والفضل لله خاشع

وهو يُعَدُّ فى الخلعاء المُجّان ، غير أن أشعاره فى الخمر متوسطة ، ويظهر أنه كفَّ عنها بأخرة من حياته ، وحسُن سيرته ، وحسُن إيمانه ، يشهد لذلك مثل قوله :

---

(١) شيمت السيوف : أغمدت .

(٢) المزن : السحب . والعشار : جمع عشراء وأصلها الناقة على وشك أن تلد ، يريد المزن المحملة بالأمطار ، الدرة : أصلها كثرة اللبن ويريد المطر الغزير .

(٣) قارن الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٣٢٠ بالأغانى ١٨/ ١٩٩ حيث ذكر أبوالفرج أن البيتين فى مديح الفضل بن الربيع .

لا تخضعنَّ لمخلوقٍ على طمعٍ فإن ذاك مُضِرٌّ منك بالدينِ
وارغبْ إلى الله مما فى خزائنِه فإنما هو بين الكاف والنُّونِ

وواضح أنه كان شديد أسر الشعر ، وأنه كان يعرف كيف يصطفى اللفظ ، سواء أراد الأسلوب الجزل الرصين أو الأسلوب العذب الرقيق . وقد توفى سنة ٢٠٩ للهجرة .

على[١] بن جَبَلة

اشتهر بلقبه العَكوَّك ، ومعناه القصير السمين ، وهو من أبناء شيعة العباسيين الخراسانيين ، وُلد سنة ١٦٠ للهجرة بحىّ الحربية فى بغداد ، وكان ضريراً ، وفى بعض الروايات أنه وُلد أكمه لا يبصر ، وفى روايات أخرى أنه فقد بصره فى صباه . وجعلته هذه العاهة يتجه إلى الدرس والتعلم ورواية الشعر وحفظه ، وسرعان ما استبانت فيه موهبته الشعرية ، فأخذ ينظم الشعر متكسباً به . ولم تطمح نفسه إلى مديح الخلفاء ، وإن كان يقال إنه مدح المأمون ، ولكن على كل حال ليس بين أيدينا شىء من هذا المديح . ونراه يمدح وزيره الحسن بن سهل بمثل قوله :

أعطيتَنى يا ولىَّ الحق مبتدئاً عطيَّةً كافأَتْ مَدْحى ولم ترنى
ماشِمْتُ بَرْقك حتى نِلْتُ رَيِّقه كأنَّما كنتَ بالجَدْوَى تبادرنى[٢]

وأهم ممدوحيه حُمَيد بن عبد الحميد الطوسى وأبو دُلف العِجْلى ، وله فى أولهما قصيدتان يقال إنه أعطاه فى كل منهما مائة ألف درهم ، وقد أنشده أولاهما فى يوم عيد والثانية فى يوم نيروز ، وفيها يقول :

حُمَيْدُ ياقاسم الدنيا بنائلهِ وسَيْفِه بين أهل النَّكْث والدينِ

(١) انظر فى على بن جبلة وأخباره وأشعاره ابن قتيبة ص ٨٤٠ وابن المعتز ص ١٧١ ، ٤٣٣ والأغانى (طبع الساسى) ١٨/١٠٠ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ١٠٦ وتاريخ بغداد ١١/٣٥٩ ونكت الهميان للصفدى ص ٢٠٩ ومرآة الجنان لليافعى ٢/٥٣ وشذرات الذهب ٢/٣٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) شام البرق : نظر إليه أين يتجه . والريق : أول الغيث . الجدوى : العطاء .

أنت الزمان الذى يجرى تصرُّفه ... على الأَنام بتشديدٍ وتليينِ
لو لم تكن كانت الأَيام قد فنيتْ ... بالمكرمات ومات المجد مُذْ حينِ
صوَّرك الله من مجد ومن كرمٍ ... وصوَّر الناس من ماءٍ ومن طين

وله فيه مدائح كثيرة ، ومن بديع مديحه فيه قوله وكان يلقب بأبى غانم كناية عن بطولاته وانتصاراته المدوية فى الحروب :

دِجْلَةُ تَسْقِى وأبو غانمٍ ... يُطْعم مَنْ تَسْقِى من الناسِ
والناسُ جسمٌ وإمامُ الهُدَى ... رَأْسٌ وأَنت العين فى الرَّاس

وقولـــه :

إنمـــا الدُّنْيا حُمَيْدٌ ... وأَياديـــه الجِسامُ
فإذا ولَّى حُمَيْدٌ ... فَعلى الدنيا السلام

وعثر القدر بمحمد بن حميد فى حروبه مع بابك ، فخرَّ صريعًا فى ساحة البطولة والجهاد لأول سنة ٢١٤ للهجرة ووجدت عليه بغداد والعالم الإسلامى وجداً شديداً ، ورثاه أبو تمام بمراثٍ رائعة عرضنا لها فى حديثنا عنه ، ولعلى بن جبلة مرثية بديعة فيه ويقال بل هى فى أبيه حميد ، ويقول أبو الفرج إن البحترى وأبا تمام سلخا فى مراثيهما أكثر معانيها وفيها يقول :

أللدهرِ تبكى أم على الدهر تَجْزَعُ ... وما صاحبُ الأَيام إلا مفجَّعُ
أُصِبْنا بيومٍ فى حُمَيْد لو انَّهُ ... أَصاب عروش الدهر ظلتْ تضعضع
وكنت أراه كالرزايا رُزِئْتُها ... ولم أَدر أَن الخلق تبكيه أَجمع
نعـــاءِ حميدًا للسرايا إذ غدتْ ... تُذاد بأَطراف الرماح وتوزَعُ[1]
كأَن حميدًا لم يقد جيش عسكرٍ ... إلى عسكر أَشياعُه لا تروَّع
ولم يبعث الخيلَ المغيرةَ بالضحى ... مِراحا ولم يرجع بها وهْى ظُلَّعُ[2]

(١) نعاء : اسم فعل أمر من نعى . توزع : تكف .
(٢) ظلع : من الظلع وهو العرج .

رواجـــع يحملْنَ النِّهابَ ولم تكن كتائبه إلا على النهب ترجعُ
هوى جَبل الدنيا المنيعُ وَغَيْثُها الـ مَرِيع وحاميها الكمىُّ المشيَّع[1]

واستنفد أبو دلف بعطاياه السنية أكثر مدائحه حتى لم يكد يبقى فيه شيئًا لغيره ، إلا ما كان من حميد الطوسى ، ومدائحه فيه أبدع وأروع ، وقد طار منها كثير على كل لسان من مثل قوله فيه :

ملكٌ تَنْدَى أناملُهُ كانبلاج النَّوْءِ عن مَطرهْ[2]
مُسْتَهلٌّ عن مواهبهِ كابتسام الروض عن زَهَرِهْ
إنمـــا الدُّنيا أبو دُلَفٍ بين مَغْزاه ومُحْتَضَرِه[3]
فإذا ولَّى أبو دلف ولَّتِ الدنيا على أثَرهْ

وقوله وقد أسرف فى المبالغة :

أنت الذى تُنْزِلُ الأيَّامَ منزلها وتنقل الدَّهر من حالٍ إلى حالِ
وما مددتَ مَدَى طَرْفٍ إلى أحَدٍ إلا قضيتَ بأرزاق وآجالِ

ويقال إنه كان يثير المأمون بمثل هذا الشعر فى أبى دلف وشعره الآخر فى ابن حميد ، فطلبه وهرب منه إلى الجزيرة ، وحُمِل إليه فأمر بإخراج لسانه من قفاه ثم قتله . وقد رفض ابن المعتز وأبو الفرج هذه الرواية الكاذبة على المأمون المعروف باتساع أفقه وسماحة نفسه وكرم سجاياه ، وقالا إنه مات حتف أنفه . وقال بعض من ترجموا له إنه مات سنة ٢١٣ وفى أخباره أنه رحل إلى عبد الله بن طاهر فى ولايته على خراسان ومدحه فأجزل صلته واستأذنه فى الرجوع ، فسأله أن يقيم واتصل برُّه به ، فلما طال مقامه اشتاق إلى أهله ، فدخل إليه وأنشده من قصيدة مستأذنا فى القفول إلى موطنه :

ملكٌ عَزْمه الزمـــا نُ وأفعـــالهُ الدُّوَلْ

---

(١) المريع : الخصيب . الكمى : الشجاع.
(٢) النوء : نجوم تظهر قبل المطر .

ليتَه حين جاد لى بالغِنَى جاد بالقَفَلْ

وأذن له مغدقا عليه من نواله. وعبد الله بن طاهر إنما أقام فى خراسان منذ سنة ٢١٤ . وفى ذلك دليل على أن وفاة على بن جبلة تأخرت على الأقل إلى هذه السنة ، وواضح أنه كان يجيد المديح إلى أبعد حد ، وكان يعرف كيف يتصرف بمعانيه ، مع الألفاظ الرشيقة العذبة ، ومن طريف معانيه قوله :

يـأسو الذى يـجرح أعداؤهُ وما لما يَجْرحه آسِ

وقوله :

كأنهم والرمـاح شابكةٌ أُسْدٌ عليها أظلَّتِ الأَجَمُ

وقوله فى مديح أبى دلف :

له هِمَمٌ لا منتهى لكبارها وهمَّتُه الصغرى أجلُّ من الدهرِ

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور براعته فى صنع الشعر وأنه كان يعمد إلى لغة سهلة عذبة مونقة ، ودفعه مزاجه الفارسى الحاد إلى الإكثار من المبالغة فى نعت ممدوحيه ، حتى ليفرط فى ذلك إفراطاً شديداً .

الخُرَيْمِىّ

هو أبو يعقوب إسحق بن حسان بن قوهى الخُرَيْمى ، من صُغْد الترك من مرو ، وهو جزرى نزل بغداد ، وكان له ولاء فى غطفان جعله يلزم عثمان بن خُرَيم المُرِّى الغطفانى فى ولايته على أرمينية ، وظلَّ وفيًّا له ، فنُسب إليه ، وفيه يقول :

جَزَى اللهُ عثمانَ الخُرَيميَّ خير ما جَزَى صاحباً جَزْلَ المواهب مُفْضِلا

(١) انظر فى الخريمى وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٩٣ وابن قتيبة ص ٨٢٩ وتاريخ بغداد ٦/٣٢٦ وزهر الآداب ٤/٢٠١ وفهارس الوزراء والكتاب للجهشيارى والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ وكذلك الطبرى ٦/٤٥٨ و٧/٥٢ والكامل للمبرد (طبعة ليبسك) ص٧٠٣ومعجم البلدان ٥/٣٦٣ وكتاب الورقة لابن الجراح ص ١٠٢ .

كفى جَفْوَةَ الإخوان طول حياتهِ وأورث مما كان أعطى وخَوَّلا[١]

وفى أخباره ما يدل على أنه كان يكثر من الاختلاف فى بغداد إلى مجالس الأدب ، ويظهر أيضًا أنه كان يختلف إلى مجالس المتكلمين إذ يكثر الجاحظ فى بيانه من النقل عنه . وقد تألق نجمه فى عصر الرشيد والبرامكة ، وفيه يقول ابن المعتز : « كان يمدح الخلفاء والوزراء والأشراف فيُعْطَى الكثير » ، ومن شعره فى يحيى البرمكى :

يا راعىَ السلطان غيرمفرِّطٍ فى لين مختبَطٍ وطيب شِمام[٢]
حتى تَنَخْنخ ضاربًا بِجرانِه ورسَتْ مراسيهِ بدار سلام[٣]

وأكثر مدائحه فى صاحبه عثمان المرى وفى محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة الملقب بفتى العسكر لقيامه على ديوان الجيش ، وفيه يقول :

زاد معروفَك عندى عِظَماً أنه عندك مستورٌ حقيرْ
تتناساهُ كأن لم تأْتِه وهو عند الناس مشهورٌ خطير

ويظهر أن صلة وثيقة انعقدت بينه وبين الحسن بن البَحْباح البَلْخيّ كاتب الفضل بن يحيي البرمكى، إذ نراه يكتب له قصيدة بديعة حين ولى مصر للرشيد سنة ١٩٣ يعبر فيها عن شدة شوقه إليه ، ومدى ما كان يتوثق بينهما من مودة وصداقة ، وفيها يقول :

إلى صاحبٍ لا يُخلق النَّأْىُ عهده لناءٍ ولا يَشْقَى به من يُصاقِبُهْ[٤]
هو الشهدُ سِلْمًا والذُّعافُ عداوةً وبحرٌ على الوُرَّاد تجرى غَواربه[٥]
فيا حسن الحُسْنِ الذى عمَّ فضله وتمَّتْ أياديه وجَمَّتْ مناقبه[٦]
إليك على بُعْدِ المزار وصعبهِ نوازعُ شوقٍ ما تُرَدُّ عَوازبه[٧]

---

(١) خول : أنعم .
(٢) مختبط : من اختبطه إذا سأله بدون قرابة أومعرفة . شمام : دنو وقرب .
(٣) تنخنخ : من تنخنخ البعير إذا برك وجثم على الأرض . الجران : عنقه . وضرب بجرانه : استقر واستقام .
(٤) يخلق : يبلى . يصاقبه : يجاوره .
(٥) غواربه : أعالى موجه .
(٦) جمت : كثرت .
(٧) عوازبه : جمع عازب وهوالبعيد .

obeikandl.com

فهل يرجعنْ عيشى وعيشَك مرةً ببغداد دهرٌ منصفٌ لا نعاتبه
عسى ولعل الله يجمع بيننا كما لاءمتْ صَدْعَ الإناء مشاعبه

وممن مدحهم المأمون وأبو دلف قائده ، وكان أبو دلف شاعرًا بليغًا محكم القول ، ولعل ذلك ما جعله يصف شعره له فى بعض مديحه بقوله :

له كَلِمٌ فيك معقولةٌ إزاءَ القلوب كَرَكْبٍ وقوفْ

وهو تصوير دقيق . ولاحظ بعض معاصريه أن مدائحه التى دبَّجها فى ممدوحيه أحسن من مراثيهم فيهم وأجود ، وسأله فى ذلك ، فقال : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء و بينهما بون بعيد ! ومن بديع رثائه قوله :

وأعْددته ذُخْرًا لكل مصيبةٍ وسَهْمُ المنايا بالذخائر مولَعُ
ولو شئت أن أبكى دمًا لبكيته عليه ولكنْ ساحةُ الصبر أوسع

وله فى بغداد حين رماها طاهر بن الحسين بالمجانيق فى فتنة الأمين ، فأحرق كثيراً من قصورها ، وهدم بعض أحيائها ، مرثية طويلة امتدت إلى مائة وخمسة وثلاثين بيتًا ، بكاها فيها ، وندبها نَدْبًا حارًّا ، موازنًا ماضيها وحاضرها ومصوراً ما كان فيها من مجون وإثم وما صارت إليه أحياؤها من هذا الدمار الذى صبه الله عليها جزاء طغيانها وفسوقها ، وفيها يقول :

يا بُؤسَ بغدادَ دار مملكةٍ دارتْ على أهلها دوائرُها
أمْهلها اللهُ ثم عاقبها لما أحاطتْ بها كبائرها
رَقَّ بها الدِّين واستُخِفَّ بذى الـ ـفَضْلِ وعزَّ النُّسَّاكَ فاجرها
وصار ربَّ الجيران فاسقهُم وابتزَّ أمرَ الدروب شاطِرُها

وهو فى القصيدة ينتصر للمأمون . ونراه يتعرض بالهجاء إلى أبى دُلف العجلى . ويظهر أنه لم يثبه بما كان يبتغيه منه ، فتحول يهجوه بمثل قوله :

إنى وجدت أخى أبادُلف عند الفَعال مولَّد الشَّرَفِ

وممن تولع بهجائهم على بن الهيثم أحد كتاب الدواوين ، وكان يتقعر فى كلامه ، حتى ليؤذى من يجالسونه بكثرة ما يورد عليهم من غريب ، وله يقول :

لا تشادَقْ إذا تكلمتَ واعلمْ أن للناس كلِّهم أشْداقا

وحدث فى أثناء رفقته لعثمان بن خريم فى ولايته على أرمينية أن عقد له فى بعض حروبه للترك على أشراف ممن معه ، فكرهوا ذلك ، وما زالوا به ، حتى عزله ، وأثاره هذا الحادث ، فنظم قصيدة فخر فيها بآبائه من الصُّغْد ، وفيها يقول :

أبِـالصُّغْدِ بَأْسٌ إذ تُعَيِّرنى جُمْلُ سَفَاهاً ومن أخلاق جارقىَ الجهلُ
فإن تفخرى يا جُمْلُ أو تتجمَّلى فلا فَخْر إلا فوقه الدينُ والعقل
أرى الناس شَرْعًا فى الحياة ولايُرَى لقبرٍ على قبر عَلاءٌ ولا فَضْلُ[1]
وما ضرَّنى أن لم تَلِدْنى يُحابِرٌ ولم تشتمل جَرْمٌ علىَّ ولا عُكْلُ[2]

وقد سلكه بعض الباحثين من العرب والمستشرقين فى أصحاب نظرية الشعوبية لجريان هذا الفخر على لسانه ، وهو لا يستمد فيه من شعوبية ، إنما يستمد من نظرية الإسلام التى تسوى بين الناس عربًا وموالى ، فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . وفى أشعاره ما يدل على حسن تدينه وأنه لم ينغمس فيما انغمس فيه بعض معاصريه من مجون أو زندقة يقول داعيًا إلى الزهد والتقوى والعمل الصالح :

تزوَّدْ من الدنيا متاعاً لغيرها فقد شمَّرتْ حَذَّاءة وانْصَرَمَ الحَبْلُ[3]
وهل أنتَ إلا هامةُ اليوم أو غدٍ لكل أُناسٍ من طوارقِها الثُّكْلُ

وفى الأغانى بترجمة حماد الراوية خبر يدل على معاشرته للمجان ، ولعله مكذوب ، لتأخر عصره عن عصر حماد ، وقد رويت له أشعار قليلة فى الغزل ، وقيل إن أول ما نظمه قوله :

بقلبى سقامٌ لست أحسن وَصْفه على أنه ما كان فهْو شديدُ
تمرُّ به الأيام تسحب ذيلها فتَبْلى به الأيامُ وهْو جديدُ

(١) شرعاً : متساوين لافضل لأحدهم على الآخر .
(٢) يحابر وجرم وعكل : قبائل عربية .
(٣) حذاء : سريعة الإدبار .

ونرى القدماء يلقبونه تارة بالأعور وتارة بالأعمى ، ويظهر أنه فقد إحدى عينيه مبكراً ، ثم فقد الأخرى بعد ما أسنَّ ، وله أشعار كثيرة ، يبكى فيها عينه وبصره ، أنشدنا منها قطعة فى الفصل الرابع ، ومن طريف ما نسوقه له هنا قوله :

إذا ما مات بَعْضُك فابْكِ بعضاً ... فإن البعضِ من بعضٍ قريبُ
يمنِّينى الطبيبُ شفاء عَيْنى ... وهل غَيرُ الإله لها طبيبُ

وقوله :

كفى حزنًا أن لا أزورَ أحبَّتى ... من القُرب إلا بالتكلف والجَهْدِ
وأنى إذا حُيِّيت ناجيتُ قائدى ... ليَعْدِلنى قبل الإجابة فى الرَّدِّ

وفى أشعاره نزعة واضحة إلى التدقيق فى المعانى ، وهو تدقيق أداه إلى الوقوف عند الطباع وتحليلها تسعفه فى ذلك ملاحظات نافذة وقدرة على النظرة الكلية فى الأشياء ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده قوله :

الناسُ أخلاقُهم شَتَّى وإن جُبِلوا ... على تشابه أرواحٍ وأجسادِ
للخير والشر أهلٌ وكِّلوا بهما ... كلٌّ له من دواعى نفسه هادِ

وقوله :

ودون النَّدَى فى كلِّ قلبٍ ثَنِيَّةٌ ... لها مَصْعَدٌ حَزْ ن ومنحدَرٌ سَهْلُ
وودَّ الفتى فى كل نَيْلٍ يُنِيلهُ ... إذا ما انقضى لو أن نائِلَهُ جَزْلُ

ونراه يصور الكرم تصويراً بديعًا ، إذ يجعله فى بِشْر المُضِيف وحسن استقباله لا فى طعامه وكثرة ذبائحه ، يقول :

أضاحِكُ ضَيْفى قبل إنزال رَحْلِه ... ويُخْصِبُ عندى والمحلُّ جَديبُ
وما الخِصْبُ للأَضياف أن يكثر القِرَى ... ولكنما وَجْهُ الكريم خصيبُ

ومما يجرى هذا المجرى من دقة التفكير وطرافته قوله السائر فى الآفاق :

ولستُ بنظَّار إلى جانبِ الغِنى ... إذا كانتِ العلياءُ فى جانب الفَقْر

وواضح أن اللفظ البارع كان يسند دائمًا معانيه وأشعاره ، فلا تجد فيه عوجًا ولا انحرافًا ، بل تجد دائمًا المتانة والسهولة ، ويُرْوَى أنه سُئل : ما بال شعرك لا يسمعه أحد إلا استحسنه وقبلته طبيعته ؟ قال : لأنى أجاذب الكلام إلى أن يساهلنى عفواً ، فإذا سمعه إنسان سهل عليه استحسانه . وقد توفى سنة ٢١٤ للهجرة .

٥

شعراء الهجاء

مرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن شعر الهجاء المنبعث عن العصبيات القبلية خفت حِدَّته فى هذا العصر ، حتى كاد يتلاشى ، إلا بقايا قليلة تمثلت فى نقائض ابن قنبر ومسلم بن الوليد ، كما تمثلت فى نقائض دعبل وأبى سعد المخزومى ، ومرجع ذلك إلى تطور واسع فى الحياة ، جعل الفخر الجنسى يحل محل الفخر القبلى ، مما دفع إلى ظهور الشعوبية ، وحقًّا بقيت أسراب من هذا الفخر عند القبائل ومواليها ، على نحو ما نجد عند بكر بن النطاح الحنفى فى مثل قوله مفتخراً بقبيلته بكر [1] :

وَمَنْ يفتقرْ منا يَعِشْ بحسامِهِ وَمَنْ يفتقر من سائر الناس يسألِ

وكان أبو نواس — كما مرَّ بنا — يفتخر بمواليه القحطانيين افتخاراً حادًّا ، ولكن الدولة كانت له ولبكر وأمثالهما بالمرصاد فقد حبس الرشيد أبا نواس بسبب إحيائه لهذه العصبية ، وطلب بكراً وهرب منه . وعلى هذا النحو لم تعد تحتدم العصبيات وبالتالى خَبَتْ نار النقائض التى كانت مشتعلة فى عصر بنى أمية . وليس معنى ذلك أن الهجاء انطفأ لهيبه ، بل لقد تعالت نيرانه واضطرمت اضطرامًا ، إذ ظل الشعراء يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو وال أو قائد أو قصَّر فى عطائهم ، وقد يهجون بعض الخلفاء على نحو ما أسلفنا عند دعبل . وهو جانب أوسع من أن يستقصى لكثرة ما قيل فيه من أشعار ، ولذلك سنكتفى هنا بالحديث عن تهاجى الشعراء بعضهم مع بعض ، وقد ذكرنا قبلا تهاجى حماد عجرد وبشار

---

(١) ابن المعتز ص ٢١٧ وما بعدها والأغانى.
(٢) (طبعة الساسى) ١٥٤/١٧.

وكانت فى حماد رعونة شديدة جعلته يتبادل الهجاء حتى مع أصدقائه مثل مطيع بن إياس ، وكان مبعث تهاجيهما تنافسهما على بعض القيان . ولعل شاعراً لم يُهْجَ فى هذا العصر كما هُجى أبان بن عبد الحميد ، وقد عرضنا لتهاجيه مع أبى نواس ، وممن أكثر من تبادل الهجاء معه المعذَّل بن غيلان ، وفيه يقول[1] :

صحَّفتْ أُمُّك إذ سَمَّتْك بالمَهْد أبانا
قد علمنا ما أرادتْ لم تُرِدْ إلا أتانا
صيَّرتْ باءً مكان التَّاء واللهِ عِيانا
قطع الله وشيكا من مسميِّك اللِّسانا

وكان أبو نواس كثير التعابث فأكثر من هجاء زملائه ، وسلقوه بألسنة حداد ، وفى مقدمتهم الفضل بن عبد الصمد الرقاشى ، وكان كثيراً ما يهجوه بأنه ليس عربيًّا وأنه دعىّ فى ولائه لبنى سعد العشيرة القحطانيين ، مما جعله يرد عليه بمثل قولـه[2] .

وجدنا الفضل أبعد من رقاشٍ من الأُتُن ادَّعتْ فيها الفيولُ
وجدنا الفضل أكرم من رقاشٍ لأن الفضل مولاه الرسول

يشير بذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أنا مولى من لا مولى له » . قد مرَّ بنا تهاجى أبى العتاهية ووالبة ، وكيف انتصر عليه أبو العتاهية انتصاراً حاسمًا حتى فرَّ منه راجعاً إلى الكوفة وخمل ذكره . واصطدم أبو العتاهية بسلم الخاسر ، فتبادلا الهجاء على نحو ما صورنا ذلك فى ترجمتنا لأولهما ، وكان سلم يرميه بأنه كاذب فى زهده ويرميه أبو العتاهية بشُحّ نفسه وما يجره ذلك عليه من الذل. وممن اصطدم به مروانُ بن أبى حفصة وأبو الشمقمق وشاعر يسمى الجنَّىّ وله يقول[3] :

غَدا اللُّؤْمُ يبغى مَطْرَحًا لرِحالهِ فنقَّب فى بَرِّ البلاد وفى البَحْر

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب)١٣/٢٢٧ .
(٢) ديوان أبى نواس. وأغانى (ساسى)١٥/٣٤.
(٣) أغانى ١٠/٩٢ وما بعدها .

فلما أتى مروانَ خيَّم عنده وقال رضينا بالمقام إلى الحَشْرِ
وليستْ لمروانٍ على العِرْسِ غَيْرَةٌ ولكنَّ مروانًا يغار على القِدْرِ

وكان دعبل كثير الهجاء لكل من يظن أنه ارتفع على مرتبته من الشعراء حتى أستاذه مسلم بن الوليد لم يسلم منه ، ور بما كان أهمُّ شاعر حسده أبا تمام ، حتى كان لا يكتفى بهجائه ، بل يدعى عليه أنه سرق قصائد برمتها من الشعراء السابقين وفيه يقول[1] :

أدعبلُ إن تطاولتِ الليالى عليك فإن شعرى سمٌّ ساعه
وما وفد المشيبُ عليك إلا بأخلاق الدناءةِ والوضاعه
ووجهك إن رضيت به نديماً فأنت نسيجُ وحدك فى الرَّقاعه
ولو بُدِّلته وجهاً بوجه لما صلَّيت يوماً فى جماعه

وكانت صِلاتُ أبى تمام فى كل بيئة ينزل بها سببًا فى كثرة مَنْ هجوه ، وقد صورنا ذلك من بعض الوجوه فى حديثنا عنه . ونحن نخص بالحديث هجَّاءين كبيرين هما أبو عُيَيْنَة المهلَّبى وعبد الصمد بن المعذَّل .

أبو عيينة[2] المهلبى

هو أبو عيينة بن محمد بن أبى عُيَيْنَةَ ، من سلالة المهلب بن أبى صفرة ، مولده ومنشؤه وحياته فى البصرة ، إذ لم يفارقها إلا لماماً ، وكان أبوه يولَّى الرى لأبى جعفر المنصور ، ثم قبض عليه وحبسه وغرَّمه . وكان لأبى عيينة أخوان شاعران هما عبد الله وداود ، ومن الغريب أنهم جميعًا كانوا هجائين ، أما عبد الله فقصد ابن طاهر ومدحه ، ثم هجاه هجاء مرًّا ، وأما داود فتعلق بهجاء آل سليمان بن على والى البصرة ، وقد تولاها من أبنائه غير واحد ، وفيهم يقول :

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهمُ واستوثقوا من رِتاج الباب فى الدارِ

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ٣٤ .
(٢) انظر فى أشعار أبى عيينة وأخباره ابن المعتز ص٢٨٨ وابن قتيبة ص٨٤٧ ومابعدها والأغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ١١ وما بعدها .

لا يَقْبِسُ الجارُ منهم فَضْلَ نارهمُ ... ولا تكفُّ يَدٌ عن حُرْمة الجارِ

وأبو عيينة أشعر الثلاثة ، ويقول ابن المعتز إنه « أحد المطبوعين الذين لم يُرَ فى الجاهلية والإسلام أطبع منهم ، وهم بَشّار وأبو العتاهية والسيد الحميرى وأبو عيينة » .

وقد استغل موهبته فى فنين هما الهجاء والغزل ، وأكثر هجائه فى ابن عمه خالد ابن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب إذ صحبه معه فى جنده حين توجَّه إلى جرجان والياً عليها للمهدى وكان خالد قد أوسع له فى الأمانى وأنه سيغدق عليه ويوليه بعض الولايات ، ولما نزل جرجان جفاه وتنكَّر له ، فبسط لسانه فيه وذكره بكل قبيح عند أهل عمله ووجوه رعيته . وعبثاً حاول أبو عيينة أن يتخلص منه ومن الجندية ، فشكاه إلى الهادى وكان قد ولى الخلافة بعد أبيه ، فأمر له بصلة وأقفله من جيش خالد، فعاد وهو يهتف بهجائه، وأكثر منه كثرة تدل على قوة طبعه وخصبه ، ومن قوله فيه :

لقد خَزِيَتْ قحطان طُرًّا بخالد ... فهل لكِ فيه ـ يُخْزِك الله ـ يا مُضَرْ
دنىء به عن كل خيرٍ بلادةٌ ... لكلِّ قبيحٍ عن ذراعيه قد حَسَرْ
له منظرٌ يُعْمى العيونَ سماجةً ... وإن يُخْتَبَرْ يوماً فيا سوءَ مُخْتَبَرْ
أبوك لنا غَيْثٌ نَعيشُ بِوَبْلِه ... وأنت جَرادٌ ليس يبقى ولا يَذَرْ
له أثَرٌ فى المكرمات يسرُّنا ... وأنت تعفِّى دائماً ذلك الأثَرْ
تسيءُ وتمضى فى الإساءة دائباً ... فلا أنت تستحيي ولا أنت تعتذر

ويقال إن الرشيد أنشد البيت الأول ، فقال : بل الخزى موفَّر على قحطان . وقد عرف كيف يخزه وخز الإبر لا بما صور فيه خزيه الذى عَمَّ به عشيرته وأخلاقه السيئة وغباوته ، بل أيضًا بموازنته بينه وبين أبيه جامعاً فى البيت الواحد بين المديح والهجاء . وهو يكثر فى هجائه من الاستخفاف به والسخرية سخرية شديدة ، مع الإقذاع ومع الغمز واللمز ، ومن طريف ماله فيه قوله :

خالدٌ لولا أبوهُ ... كان والكلبَ سواءَ
لو كما ينقصُ يزدا ... دُ إذن نال السماءَ

وقوله :

وإذا تطاولت الرُّعُو سُ فغَطِّ رأسك ثم طَاطِهْ

ويروى أنه[1] قصد ابن عمه ربيعة بن قبيصة بن روح بن حاتم المهلبي واستماحه فلم يجد عنده ما قدَّره فيه ، فولَّى عنه مغاضبا وعرف ذلك داود بن يزيد بن حاتم ابن قبيصة المهلبي ، فترضاه بصلة سنية جعلته يمدحه مدحاً رائعًا هاجيًا في تضاعيفه قبيصة هجاء كله سموم من مثل قوله :

داودُ محمودٌ وأنت مُذَمَّمٌ عجبًا لذاك وأنتما من عودِ
ولرُبَّ عودٍ قد يُشَقُّ لمسجدٍ نصفٌ ، وسائرُه لحُشِّ يهود
فالحُشُّ أنت له وذاك لمسجدٍ كم بين موضعِ مَسْلَحٍ وسجودِ
داود يفتح كلَّ بابٍ مُغْلَقٍ بِنَدَى يديه وأنت قُفْلُ حديد

وكأنما كان موكلا بهجاء أبناء أعمامه ، وأيضًا ببناتهم ، فقد روى صاحب الأغانى أن ابن عمه سعيد بن المهلب تزوج بنت سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، وكانت قد تزوجت قبله رجلين ماتا عنها ، فكتب أبو عيينة إليه ، يعنِّفه على اختياره لها وأنه إنما اختارها بسبب مالها ، يقول :

رأيتَ أثاثَها فطمعتَ فيهِ وكم نَصَبَتْ لغيرك من أثاثِ
فَصَيِّرْ أمرها بيدَىْ أبيها وسَرِّحْ من حِبالك بالثَّلاث[2]
وإلا فالسلامُ عليك منى سأبدأ من غَدٍ لك بالمراثى

وكانت فاطمة بنت عمه عمر بن حفص المهلبي قد شغفته حبًّا ، وتصادف أن اقترنت بعيسى بن سليمان بن على العباسى ، فكاد يُجَنُّ جنونه ويطير صوابه ، وظل يدور حولها وينظم فيها أشعاره ، غير أنه كان يخشى زوجها وآله ، فعمد إلى التكنية عنها بمولاة لها تسمى دنيا ، وفى ذلك يقول :

وكتمتُ اسمها حِذارًا من النا س ومن شرهم وفى الناس شَرُّ

(١) نسب أبو الفرج الخبر إلى عبد الله ، ولكن ابن المعتز نسب الشعر المصاحب له إلى أخيه أبى عيينة ، مما يدل على أنه صاحب الخبر .
(٢) سرح : طلق .

ويقولون بُحْ لنا باسم دُنْيا واسمُ دنيا سِرٌّ على الناس ذُخْرُ

وهو يكثر فى أشعاره لها من تصوير ذكرياته معها ، وزياراته ، التى كانت متصلة لها قبل زواجها وكيف كانت تبادله وُدًّا بود وحبًّا بحب ، وكيف كانا يجتمعان فى قصرها الفخم وما حوله من رياض رائعة ، وكيف كانا يلعبان ويعيشان منذ صغرهما ، يقول :

ومَلْعبنا فى النهر والماءُ زاخرٌ قرينين كالغصنين فرعين فى أَصْلِ
ومن حولنا الريحانُ غَضًّا وفوقنا ظلالٌ من الكَرْم المعرَّش والنَّخْل
إذا شئت مالتْ بى إليها كأنَّنى إلى غُصْنِ بانٍ بين دِعْصَيْن من رَمْل[1]
فيا طِيبَ طعم العيش إذ هى جارةٌ وإذ نفسها نفسى وإذ أهلها أهلى
وإذ هى لا تعتلُّ عنى برِقْبةٍ ولا خوف عَيْنٍ من وشاةٍ ولا بَعْلِ
فقد عفَّت الآثار بينى وبينها وقد أوحشتْ منى إلى دارها سُبْلى

وكانت سيدة فاضلة ، فكانت لا ترد عليه رسائله وكانت تنتهر رسله ، بينما هو يصطلى بنار الحب المحرقة ويتعذب كما لم يتعذب أحد ، ملوِّحاً لها بأنه سيموت فى سبيلها وأن أحداً لن يحزن عليه حزنها لجامعة القرابة والحب القديم ، يقول :

ولأنت إن متُّ المصابةُ بى فتجنبَّى قتلى بلا وِتْرِ
فلئن هلكتُ لتلطمِنْ جزعاً خَدَّيك قائمةً على قَبْرِى

وعلى هذا النحو ظل حبها قوياً حاراً فى قلبه ، وظلت ترده عنها فى عنف تارة وفى رفق تارة ثانية ، وهو يذكِّرها عهودهما القديمة وكيف أنه بقى لها وفاء شديداً ، بينما هى تدافعه وتقاومه قاطعة لكل عهد وسبب بينها وبينه ، وهو كل يوم يزداد بها كلفاً وغراماً وحبًّا ما فوقه حب ، وفى ذلك يقول :

أرى عَهْدَها كالوَرْدِ ليس بدائمٍ ولا خير فيمن لا يدوم له عَهْدُ
وعهدى لها كالآسِ حُسْناً وبهجةً له نُضْرةٌ تَبْقَى إذا ما انقضَى الوَرْدُ

---

(١) الدعص : كثيب الرمل .

وما وَجدَ العُذْرِىُّ إذ طال وَجْدُهُ بعفراءَ حتى سَلّ مهجته الوَجْدُ
كوجدى غداة البين عند التفاتها وقد شفَّ عنها دون أترابها البُرْدُ
فقلت لأصحابى هى الشمسُ ضوءُها قريبٌ ولكنْ فى تناولها بُعْدُ

وفى أشعاره ما يدل على أنه فارق البصرة مع ابن عمه خالد بن يزيد طلباً للسَّلْوَى عنها ، ولكنه ظل هناك يذكرها ويذكر حبها متغنيًّا به وبها ، وعاد يدور حول بيتها لا يستطيع كظم حبه ، بل يعلنه إعلانًا ويكرر هذا الإعلان مازجاً له بكثير من التضرع والاستعطاف ، وصاحبته لا تُعْنَىَ به ولا تكترث ، وهو يزداد بها شغفًا وهيامًا ناظمًا فيها أشعاره البديعة من مثل قوله :

ضيَّعتِ عهد فتًى لعهدك حافِظٍ فى حفظه عجبٌ وفى تضييعكِ
ونأيتِ عنه فماله من حيلةٍ إلا الوقوفُ إلى أوان رجوعِك
متخشِّعاً يُذرى عليكِ دموعَهُ أسفاً ويعجب من جمود دموعكِ
إن تَفْتَنيه وتذهبى بفؤاده فبِحُسْنِ وجهكِ لا بحُسْن صَنيعك

وأكبر الظن أنه ظل يذكرها ويتغنى بها حتى الأنفاس الأخيرة من حياته ، وقد جرَّته غيرته من زوجها إلى لمزه ببعض هجائه . وكانت له نظرات وتأملات دقيقة فى الحياة جعلت الحكمة تجرى أحيانًا على لسانه ، ومن رائع ما يروى له فى تصوير القدر والحظوظ :

ما لا يكون فلا يكون بحيلةٍ أبدًا وما هو كائنٌ فيكونُ
سيكون ما هو كائنٌ فى وقتهِ وأخو الجهالة مُتْعَبٌ محزونُ
يسعى القوىُّ فلا ينال بسعيهِ حَظًّا ويحظى عاجزٌ ومَهِينُ

وواضح من كل ما قدمنا أنه كان نبعاً غزيراً من ينابيع الشعر العباسى ؛ ويقول ابن المعتز إن « شعره أنقى من الراحة ، ليس فيه عيب ولا بيت يسقط » . ويقول أبو الفرج : « كان أبو عيينة من أطبع الناس وأقربهم مأخذاً . . وكان يقرب البعيد ويحذف الفضول ويُقلّ التكلف » . وفى حديث ابن المعتز عنه ما يدل على أنه لحق خلافة المأمون ويظهر أنها لم تظلّه طويلا .

عبد الصمد[١] بن المعذّل

من قبيلة عبد القيس ، ومولده ومنشؤه بالبصرة ، وهو من بيت شعر ، كان جده غيلان بن الحكم شاعراً ، ويُرْوَى أن محمد بن سليمان العباسى كان يستخدمه فى ولايته البصرة على بعض أعشارها ، فظهرت منه خيانة فعزله وأخذ ما خانه فيه ،

فقال حماد عَجْرد يهجوه بهذين البيتين اللذين أنشدناهما فى غير هذا الموضع :

ظهرَ الأَميرُ عليك يا غَيْلانُ إذ خُنْته إن الأَمير مُعانُ
أَمع الدَّمامة قد جمعتَ خيانةً قَبُحَ الدَّميم الفاجرُ الخوَّانُ

وكان ابنه المعذل شاعراً مُجيداً ، وقد أسلفنا ما نشب بينه وبين أبان بن عبد الحميد من هجاء كانا يتعابثان به ، ومن طريف ما يُنْسب إليه من شعر قوله :

وإنى لصبَّارٌ على ما ينوبنى وحسبك أن الله أَثْنَى على الصَّبْر

وأم عبد الصمد أم ولد يقال لها الزرقاء ، وكان له أخ يسمى أحمد كان شاعراً أيضًا ، يقول أبو الفرج : « كان عفيفاً ذا مروءة ودين وتقدم فى المعتزلة » . وفى أشعار عبد الصمد ما يدل على أنه كان يختلف إلى حلقات الرواة واللغويين إذ يقول :

لن تَلْبسُوا منطقى بمشكلة إلا عن الأَصمعىِّ أو خَلَفِ[٢]

يريد خلفاً الأحمر . وكان على عكس أخيه أحمد فيه لهو ومجون وتعابث ، وكان هَجَّاء خبيث اللسان حتى ليصبح الهجاء عنده كأنه غريزة ، فإذا هو يتناول به أخاه ، وكان له جاه واسع فى بلدته وعند حكامه لا يقاربه عبد الصمد

---

(١) انظر فى عبد الصمد وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٣٦٨ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/٢٢٦ وما بعدها و ١٤/٣٦١ وما بعدها وكتاب الورقة لابن الجراح ص ٣٠ وفوات الوفيات والأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) ص ٣٩ ، ٥٣ ، ١٣٦ والوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ١٢١ و ٢٩١ و ٣٠١ .

(٢) لبس الأمر : خلطه .

فيه فكان يحسده ويهجوه فيحلم عنه ، وحدث أن قدم على بعض الخلفاء فأكرمه وخلع عليه ووصله بمال كثير ، ورجع إلى البصرة ، فاستقبله جِلَّتها استقبالا حافلا ، أما عبد الصمد فاستقبله بقوله :

ولما أن أتتْه دُرَيْهَمَاتٌ من السلطان باع بهنَّ ربَّهْ
كسبتَ أبا الفضولِ لنا مَعاباً وعارًا قد شُمِلْتَ بهِ وسُبَّهْ

وفكر أحمد فى أن يجاور فى الثغور ويجاهد فى جيش إسحق بن إبراهيم المصعبى صاحب بغداد وحاكمها ولم يكد يلقاه حتى أنشده شعراً مدحه به ، فأمر له بخمسمائة دينار . وبدا لأحمد أن يعود إلى البصرة ، فتلقاه عبد الصمد بقوله :

يُرِى الغُزَاةَ بأن الله هِمَّتُه وإنما كان يغزو كِيسَ إسحاق
فباع زهدًا ثواباً لا نفادله وابتاع عاجلَ رِفْد القوم بالباقِ[1]

وكان لا يخفُّ على نفسه أحد أبناء أخيه ، ويقال إنه كان فيه تيه وعجب ، فتولاه كما تولى أباه بأهاج كثيرة من مثل قوله :

يا أبغضَ الناسِ فى عُسْرٍ وميسرةٍ وأقذرَ الناسِ فى دُنْيا وفى دين
لو شاء ربى لأضحى واهباً لأخى بمُرِّ ثُكْلك أجرًا غير مَمْنونِ
إن القلوب لتُطْوَى منك يابن أخى إذا رأتْك على مثل السَّكاكين

وطبيعى وهذا شأنه فى أهله أن يعظم شره على من حوله من الشعراء ، وأن يقود معهم معارك هجاء كثيرة ، وهى معارك كثرت فيها السهام المسمومة ، على نحو ما نجد فى أهاجى حمدان بن أبان له ، إذ قذف أمه الزرقاء طويلا ، وكان كثيراً ما يأتى هو نفسه الشعراء من هذه الجهة لا يتورَّع ، من مثل قوله فى أبى رِهْم :

لو جاد بالمال أبو رِهْمِ كجوده بالأُخت والأُمِّ
أضحى وما يُعْرَفُ مِثْلٌ له وقيل أسْخَى العُرْب والعُجْمِ

واشتبك مع الجَمَّاز ابن أخت سلم الخاسر ، وكان لا يقلّ عنه خبثًا فى

(١) الرفد : العطاء .

هجائه ولا شرًّا ، وكان مما صَبَّه الجماز على رأسه قوله :

ابنُ المعذَّل مَنْ هُو ومن أبوه المعذَّلْ
سألتُ وَهْبَانَ عنه فقال : بَيْضٌ محوَّلْ[1]

وكان وهبان رجلا يبيع الحمام ، فجمع طائفة من أصحابه وجيرانه وجعل يَغْشَى المجالس ويحلف أنه ما قال : عبد الصمد بيض محوَّل ويسألهم أن يعتذروا إليه ، فلم يبق خاصٌّ ولا عام إلا رواهما ، وردَّ عليه عبد الصمد قائلا :

نَسَبُ الجمَّاز مقصو رٌ إليه منتهاهُ
ليس يدرى من أبو الجَمَّ از إلا مَنْ يـــراهُ

غير أن شعره فيه لم يشع على الألسنة ، لأن فهمه يحتاج إلى شيء من الفطنة .
ووقع بينه وبين يزيد بن محمد المهلبي الشاعر تباعد ، فهجاه يزيد ونسبه إلى الشؤم ، فكال له الصاع صاعين ، ونراه يتعرض لأبي تمام حين اجتمع به فى مجلس مزرياً على تكسبه بشعره ، قائلا له :

أنت بين اثنتين تَبْرُزُ للنا س وكلتاهما بوجهٍ مُذَالِ[2]
لست تنفكُّ طالباً لوصالٍ من حبيبٍ أو طالباً لنَوَالِ
أىُّ ماءٍ لحُرِّ وجهك يبقى بين ذُلِّ الهوى وذُلِّ السُّؤال

وفكر أبو تمام فى إفحامه ، ثم أنشد :

أفِيَّ تنظمُ قول الزُّورِ والفَنَدِ وأنت أنْزَرُ من لاشيءَ فى العَدَدِ[3]
أشْرَجْتَ قلبك من بُغْضى على حُرَقٍ كأنها حركاتُ الروح فى الجَسَدِ[4]

وكان لا يزال يصبُّ سياط هجائه على جيرانه ومَنْ يختلط بهم من القيان اللائى يُعْرِضن عنه وأصحابهم من المقينين ، وله مرثية كلها هجو فى أحد الطفيليين وقد صوَّر فيها نهمه وموته من هذا النهم ، استهلها بقوله :

---

(١) محول : حضنه غير أبويه .
(٢) مذال : مهان .
(٣) الفند : الكذب .
(٤) أشرجت هنا : نسجت .

أحزانُ نفسى عليه غير مُنْصَرِمَهْ وأدمعى من جفونى الدهرَ مُنْسجمه

وله أشعار مختلفة فى الغلمان وقصيدة بديعة يصور فيها عشق جارية مغنية لشاب كان كاتباً عند مولاها ابن الجوهرى وكان شيخاً هِمًّا قبيح الوجه ، وكيف أنها هربت إليه فى جُنْح الليل ، وفيها يقول :

خرجتْ والليلُ معتكرٌ لم يَهُلْها أيَّةً سلكتْ
وعيونُ الناس قد هجعتْ ودُجى الظلماء قد حَلكتْ
لم تَخَفْ وجدًا بعاشقها حُرْمةَ الشَّهْرِ الذى انتهكتْ
ورأتْ لما شَفَتْ كمدًا أنها فى دينها نَسَكتْ

وكان يحسن تصوير ما يصفه ، وهو إحسان جعله يبرع فى تصوير الطبيعة ، ويظهر أنه كان يشغف بمناظرها شغفاً شديداً على نحو ما نرى فى تصويره لبستانه ، وكان بستاناً غاصًّا بالأشجار والرياحين وفيه يقول :

إذا لم يَزُرْنِىَ نَدْمَانِيَــهْ خلوتُ فنادمتُ بُسْتانِيَهْ
فنادمتُه خَضِرًا مُونِقــاً يُهَيِّجُ لى ذكرَ أشْجانِيَهْ
يقرِّب لى فَرْحةَ المُسْتَلِذِّ ويُبْعد هَمِّى وأحْزانِيَــهْ
أرى فيه مثلَ مدارى الظِّباء تظلُّ لأطْلائها حانِيَهْ[1]
ونَوْرَ أقاحٍ شَتيتِ النباتِ كما ابتسمتْ عَجَباً غانِيَهْ
ونرجِسُهُ مثلُ عين الفتاةِ إلى وَجْد عاشقها رَانِيَه

وقد مرت بنا فى حديثنا عن ازدهار الشعر قطعة طويلة من قصيدته الرائعة فى تصوير حُمَّى أصابته تصويراً يدل على دقته فى الوصف وإحاطته بتفاصيل ما يصفه. ومما لا شك فيه أنه كان شاعراً بارعاً خصب القريحة ، وأنه كان يحرص على الألفاظ المألوفة ، ولكن مع المتانة والرصانة ، وكانت وفاته سنة ٢٤٠ للهجرة .

---

(١) المدارى : القرون . الأطلاء : جمع طلا وهو ولد الظبية ساعة يولد . والاستعارة واضحة .